البعث أو معنى الروح

تأليف

عبد العظيم مصطفى سعد

يطلب من

مكتبة الأنجلو المصرية

مطبعة دار الكتاب العربي

شارع فاروق بمصر

تلفون ٥٠٩٣٨

البعث أو معنى الروح

تأليف

عبد العظيم مصطفى سعيد

الطبعة الأولى

مطبعة دار الكتاب العربي
شارع فاروق بمصر
تليفون ٥٠٩٣٨

باسمك اللهمّ وعلى نهجٍ مِنْ قدرتِك
أَخُطّ صَفحة مِن صَفحاتِ العُلوم .

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِىْ خَلَقَ خَلَقَ الْاِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ

اِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْاَكْرَمُ الَّذِىْ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْاِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ

نشوءُ العقليّة والتاريخ

لقد فهمنا أن الحياة كان يقدر لها وضع آخر لو تحكم آدم فى طباعه ونوازعه فى عزم وصدق إرادة ؛ وفهمنا أنه كان فى جنة ، ولكن أين ومتى ؟. فذلك شيء لم يحققه لنا التاريخ .

وحين نشأت الأسر وتكونت الجماعات ، نشأت عقليات عرفت كيف تؤرخ للحوادث . وحين ابتدأ التاريخ كان قد غابت عنه فترة قدرها المؤرخ الأول على شيء من المبالغة والتهويل ؛ بقى فى أساطير الأولين حتى بنينا عليه بداية الحياة قبل التاريخ بملايين من السنين . والواقع أنها حين ابتدأت بآدم كانت تبتدئ بالعصر الحجرى المعروف فى التاريخ ؛ وحين ثُنِّيَتْ بنوح كانت قد خرجت من صيد إلى سياحة ، وهذا وذاك لم يخرج عن القرن الستين قبل الميلاد .

ولقد فهمت تلك العقليات . أو تخيلت أن الأرض تتصل بالسماء فى محيط ، وأنها بقعة من بقعه ؛ وحين قدرت لجنة آدم موضعا قدرته فى نقطة من السماء أو على جزيرة من جزر ذلك المحيط ، وقد بقى هذا التقدير حتى فهمنا خطأ أنها كانت على واحد من الكواكب .

ولقد نزلت شرائع ، وجاءت أديان ؛ لتتصل بالعقلية إلى ضبط فى تحليل أو تحريم ؛ ووقف الإنسان منها على عناد أدى إلى خلط فى التدوين .

ولقد كان لكل نبى لبنة فى بناء الإنسانية ، ولكنها قد تناساها التاريخ ، وتخبطنا فى موضعها بين أحداثه . وكان كل مصدر من مصادره يغذ

فى سيره دون أن يلوى على واحدة منها بتفصيل علمى أو زمنى ، ولعل ذلك كان ... لأن ما وصل إلينا من أساطير، كان لعلماء يونانيين ؛ إذ كانوا لا يمتون إلى الأديان السماوية بصلة .

ولقد كان كل تدوين يتأثر بعقلية المدون أوجنسيته أكثر مما يتأثر بالرأى العام . وقد قسمت العقلية أو الجنسية إلى سامية وآرية ، والواقع أنه لا معنى لهذا التقسيم . أو أنه تقسيم وقتى ريثما تتجه العقلية إلى تفريع جديد .

والتاريخ للعقلية ليس من السهل بحيث ينتهى عند إعداد قلم أوقرطاس . على أنه شىء لم يعرفه إلا العلم الحديث ، وعلى بداية ؛ وحين يبتدئ يبتدئ بما قبيل الإسلام ويتناول معه عقلية اليونان . أما فيما عدا ذلك فيعوزه بحث أو تنقيب لرده فى فهمنا إلى صواب .

ولقد بنيت قوميات وفنيت أمم ؛ وأما نسبة هذه أو تلك لنبى فقد وقف التاريخ منها على صمت ؛ ولم يوسع صدره إلا لسامية ! . . أو إسماعيلية أو إسرائيلية لا غير .

ولقد كان التدوين يعتنى أكثر ما يعتنى بالأحداث والوقائع ؛ وأما الناحية التاريخية لنشأة لغة أو تطور عقلية فما زالت تحت أنقاض التاريخ . وإننا سنحاول أن نرد لكل نبى قوميته أو ذريته مع توضيح لحقيقة دينية غامضة أدت إلى تمسك الإنسانية بإله منها . وآخر لنشأة لغوية نربط به أواصر تلك اللغات ، كما نصل به مع الإنسانية فى تدرجها الفكرى إلى تحللها من هذا الإله .

غيبٌ مأمول

ما أطيب الحياة لو لم تعكر بموت . أو توصف بكدر . وما ألذ نعيمها لو أعطاه الإنسان على عقل و بصيرة . وما أخصبها تربة ؛ وأسرعها إنتاجا لو أصابت من البدء رجولة سريعة من بنوة آدم . ولكن عقلية آدم كانت صحيفة بيضاء على نحو ما ندرسه للطفولة فى علم النفس . وكان كثيراً ما ينسى دروسه التى يتلقاها عن ربه . وقد بقيت بنوته على بطء فى بناء معرفتها ، وتكوين علومها ؛ لا لشيء إلا لأنه لم يسبقه عصر ما من عصر الحضارة يستطيع أن يأخذ منه مادة للبناء .

ولقد ركنت الحياة بعد آدم إلى كسل كان إرثا لكل غباوة . و إن آدم يمكن أن نلتمس له عذراً فى ذلك . . ولكنه الله سبحانه ما التمس له ذلك : « ولقدْ عَهِدْنا إلى آدَمَ من قبلُ فنسِيَ ولم نجِدْ لَهُ عَزْما» . و إنه سبحانه كان يريد أن يأخذ آدم بالشدة لا باللين . وكان يريد منه أن يبنى لنفسه بنفسه . و بنيه من بعده مادة للمعرفة . ومادة للبناء . وأساسا لحضارة المستقبل . و إن عقلا ما . . . لا يمكن أن يأخذ تكوينه إلا بعد مشاهدة واستنباط .

و إن الحياة تجربة واختبار . والعقل لا يمحص إلا عن هذا الطريق .

إن آدم كان يجب عليه أن يجرب و يختبر . و يبث فى ذريته شيئا من حب الاستطلاع بما أخذه عن ربه من إرشاد . ولكنه لم يستطع ذلك . وكان لله أن يأخذ ابن آدم يبتليه . ليمرن سمعه . و يجرب بصيرته . ليصل إلى المعرفة بنفسه عن طريق المشاهدة . ومقارنة الحقائق بعضها ببعض .

واقد كان الإنسان الأول طفلا فى عقله . وطفلا فى تكوينه . وكان كثيراً ما تتعرج به الطريق إلى المعرفة وكان أحوج ما يكون إلى مرشد . وكان كلما ضاقت به المعرفة أو وصل فيها إلى جمود هيئ له بعث جديد ليضع لبنة فى هذا البناء .

وقد كان كل نبيّ يترك ذرية ؛ ربما اعتبرت أصولا صالحة للإنشاء والتعمير . وربما تغلب الضعف على بعض منها فأبطأ ، وأبطأت به الحياة عن سنة التقدم والارتقاء .

لقد كان على الإنسان أن يبنى ويعرف هندسة الطرق والبناء ، وكان عليه أن يزاول العلوم ويعرف طبائع الأشياء . وكان عليه أن يزاول التجارة ويعرف علوم الاقتصاد . . . الخ ولو أمكنه أن ينسج ثوبه ويزخرف عمارته على عقل وبصيرة فى الدين لخطت الإنسانية بخطوات واسعة إلى حضارة القرن العشرين .

ولقد أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا . وحين بنى عقليته على شيء استحق أن يقال فى تكوينه العقلى أو العلمى « إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وإِمَّا كَفُورًا » .

ولقد استطاع الإنسان أن يبنى حضارات ، ويقيم مدنيات ، ولكنها لم تكن على شيء ؛ إذ لم تكن الإنسانية قد أخذت بسبب من السماء ، وكان نصيبها التدمير . وما اتصل منها بسبب تجاهله أو تعامى عنه التاريخ . « وَلَوْلاَ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ . . وَزُخْرُفًا » .

ولقد كان ذكر جنة أونار فى ذلك للترغيب والترهيب فقط . . ؛ كأسلوب

من أساليب التربيــة والتعليم . وكان يشتد وقع ذكر جنــة فى نفوس قوم يسكنون بطون الصحراء ، فإذا لمسوا منها شيئا بعد الهجرة على ضفاف الأنهار تربعوا عليه ونسوا بؤس الحياة ، فى حين أن آخرين حسبوها شـيئا آخر فى غيب السماء ؛ والواقع أنها لم تـكن أزيد من ذلك إلا بقدر مايَجِدُّ فى المعرفة من بحوث واختراعات تهيئ لهؤلاء وهؤلاء جزءا من السعادة .

إننا فى الواقع لو أتينا بذلك الإنسان الأول لو فرضناه معدوماً ليعيش معنا فى ربوع العلم ؛ وتحت ظل من حضارة القرن العشرين ما شك فى أنها جنة ، وإن الغيب الذى كثر ترديده فى الدين هو كل جديد تأتى به رسالة ،أو يستحدثه عقل ، أو ينتجه نبوغ ؛ وهل يعلم سابق أو لاحق ماستكون عليه الحضارة بعد قرن مثلا أو قرنين .

ولقد كان الموت أشد ما ابتلى به الإنسان ، حتى جرى خطأ على الألسنة أن الدنيا دار فناء ؛ وقد كان يشتد وقعه إذا أصاب عاهل أسرة أو رب جماعة ؛ حتى ضلت الأفهام وحارت العقول فيما بعد الموت ، وإن الأمر ما كان يستدعى ذلك لو كنا على هدى و بصيرة وماذا يصنع الله بالإنسانية التى يتباهى بها إذا كتب لها فناء بعد الموت . أو قدر لها بعداً عن المعرفة بحياة روحية فقط كما هو شائع فى الدين .

إن ابن آدم ما فنى بجسمه ولا بروحه إذا مات أو أعلنت له الوفاة ؛ إنه يتمتع بقسط وافر من الحياة على ظهر الكواكب كل حسب دينه وتكوينه فى دنياه. «وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً : بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ[1] ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ[2] أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَهُمْ يَحْزَنُونَ» . وإن ذلك أمر عام لمن قتل أو لم يقتل

(١) لا يفهم من رزق إلا أكل وشرب وهذا يؤكد وجود هذه الحياة بشكلها الأول .
(٢) أى المخالفون معهم فى الدين .

فى سبيل الله . فإذا بعث نبى ، وأوجد فصلا فى الدنيا بين حياة وحياة ، وثبت لدينه وجود واعتراف عام هيئ له ولأنصاره بعد الوفاة حياة على ظهر واحد من الكواكب ، وألقى بالمخالفين فى آخر مع من سبقوهم من المحافظين أو الرجعيين عن كل تجديد . وقد أصبحت هذه الكواكب موردا لموتى كل دين بعد الإحياء . كل نبىّ مع أمته يبعث فيها الحياة ويردها إلى الصواب إن أخطأته فى الطريق ؛ كما يتعلم السابق من اللاحق كل مايحدث على ظهر الدنيا من أسباب البعث والتجديد .

هذا مايجب أن نفهمه فى شأن الإنسانية بعد الموت . وهل يتباهى الله سبحانه بخلق سماوات سبع وتكون مجدبة من الحياة ؛ أو واقفة عند التراث الأول من العلوم ؟ . . « بَلْ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فى الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ » .

إن الدنيا يجب أن نفهمها للآخرة دار تجربة وتمهيد ؛ يتعلم فيها الفرد طرق الكسب ؛ فيخيط لنفسه أو غيره حذاءه ليصنعه كذلك فى الآخرة ؛ كما يتعلم هندسة البناء أو الرى ... الخ ليبنى لنفسه أو غيره داره . أو يدير تجارته أو يحسن الفلاحة . فتتكون المدينة وتتهيأ أسباب الحضارة للآخرة .

ونحن فى الدنيا قد تعلمنا كل شىء ؛ وفهمنا كل شىء ... تعلمنا كيف تقام الممالك ، وكيف تساس الدول . وفهمنا أسباب الهدم فى كل شىء حتى نكون منه فى الآخرة على حذر . وقد أخذنا الله على هذا النهج التدريجى منذ البدء ؛ حتى إذا أعلن انتهاء هذه الفترة يكون المستقبل قد تمت عدده ، وتهيأت أسبابه . وقد أمهلنا الله كثيرا ، وأمد لنا فى العمر حتى لا يكون هناك عذر لمعتذر .

والعالم الآن قد أخذ طريقه إلى الكمال ، ولم يبق على فترة الانتقال سوى

تجديد فى وسائل التربية والتعليم ، وقوة تفكير تصل بالعقلية إلى إرسال ؛ ولو فى واحد فقط من الناس : « وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِي مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ [1] » .

هذا ما يمكن أن يقال فى شأن جنة . وإن جنة وعد بها المتقون أقل من ذلك بكثير . وإنها لم يصفها القرآن إلا وصفا مجملا خلى من علوم أو اختراع ولعلها وقف تعريفها إلى هذا الحد لأن ذلك لم يكن إلا من حضارة القرن العشرين . « مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ * أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ؛ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا ؛ وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ » . أما النار فلا أعتقد أنها جحيم . أو ترمى بشرر كالقصر ؛ وربما كان ذلك معنى للموجات الكهربية أو الأشرطة الخيالية التى يستطيع أن يكونها الإنسان لنفسه حين يصل بعقليته إلى إرسال لاسلكى ؛ ولعل ذلك يكون موضع منافسة بين الجميع . وإن ذلك لن يكون إلا تكوينا للشخصية على نحو ماسنبينه بعد . « قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ — أى تكوين شخصيتكم — إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ؛ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ » .

وربما كان ذلك أيضا معنى للتفريغ الكهربى بين الأمم فى حروبها العالمية . وقد تمت ديانة زرادشت إلى شىء من هذا المعنى ؛ فما جاد من الأفكار أخذ شكلا ناصعا ومن نور ؛ وما خبث اختلط بشوائب الحياة . « اللَّهُ نُورُ [2] السَّمَوَاتِ

(١) الخروج والتخريج والبعث والنفخ فى الصور كلها ألفاظ مترادفة فيقال فلان تخرج على فلان فى الأدب كما يقال قد نفخ فى صورة فلان أى أخذ بيده إلى الكمال حتى أن كلمة البعث والتجديد أصبحت ملازمة فى الخطابة لألفاظ الزعماء وساسة الدول ولا تعدو الصيحة أن تكون صيحة تنبيه من غفلة أو نسيان والنفخ فى الصور أى الشكل والصورة الكهربية للانسان والمنعكسة فى زرقة السماء والتى يلتقطها اللاسلكى بأحد أجهزته .

(٢) أى منيرها بموجات كهربية يشمها إنس وجان عندما تستعد النفس لتحمل جزء كبير من المشاق .

وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ . إلخ » . « يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ؛ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ . إلخ » . وقد بقى هذا اللفظ « النار » على حروفه ومعناه لأن الإنسانية لم تتخلص بعد من شوائب الحياة . أو ما يسمى بأخطاء فى عرف الدين ، أو لأنها ما كانت تعرف من قبل شيئا عن تلك الموجات الكهربية التى يمتلىء بها الجو ، ولعله استؤثرت له هذه الحروف لتبلغ العظة من النفوس ، وليعلم الإنسان أنه ما خلق عبثا ، ولن يترك سدى ؛ وحتى يأخذ لنفسه طريقا جادة فى الحياة . وليس معنى هذا أن الإنسان سيفلت من عقاب ؛ وإن نعيم الآخرة لن يوزع إلا بقسطاس ، وعلى حسب مقدار استعداد الأنفس للتخلص من أخطاء الحياة .

هذا شىء عن النشأة الأولى . وقد أرادها سبحانه أن نكون من تكوين الإنسان . ويمكن أن نقدر مدتها عند نزول القرآن بستة آلاف سنة قبل بعث محمد أو قبل الميلاد من قوله تعالى : « خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ . . . » مع قوله تعالى : « وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ » وخلق سماوات : خلق عقليات وأرواح يمكن أن ترتبط بالسماء . أما نشأة أخرى فقد قال الله فيها : « وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى » بعد تجلية الأمور وتوضيح السبيل لكل إنسان بعد إرشاده إلى ما أخطأ فيه وما أصاب . وبعد بعثرة العلوم والمعارف عندما يأخذ منها الجاهل بنصيب وافر يتساوى فيه مع العلماء . ثم يدعى قسرا إلى اقتراف إثم أو إتيان محرم . أو يدعي إلى تقديم عقلية فى العلوم بعد تضليلها عليه فمن أثبت رجولة نجا وإلا فلا « إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ؛ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ » .

كيف خلق الله آدم

لقد سألني بعض الأساتذة : كيف خلق الله آدم ؟ . . . فوقفت مبهوتا ، وفهمت أنه يريدني أن أقول بإحدى نظريات درون ؛ أو أنتحي إليها في شيء من تفكيري في الجواب ... ولقد سألت نفسي كثيرا . « كيف خلق الله آدم » . « خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَكَانَ » . ولكن شتان بين تراب وجسم إنسان ، ولولا عاصم من الدين مع شيء من التفكير لضللت أو عييت بالجواب .

لقد كنا في الصغر إذا جرح أحدنا بجرح ، وسالت منه الدماء ضمدناه بجملة من تراب ناعم ، وبعد أيام يلتئم الجرح ويتساوى موضعه مع الجسم ، وحينما كبرنا ، وأخذنا بقسط وافر من التعليم علمنا أن التراب مكونات معدنية ؛ وأن الجسم كذلك . وفهمنا أو يجب أن نفهم أن للمعادن حالات ، وأن الملاءمة بينها . أو تحويلها من حالة إلى أخرى أمر تقوم عليه . مداواة الجروح . أو أمر تنشأ عنه الحياة تحت ضغط ما من حرارة الجو . ولقد فهمت أخيرا أن التراب باختلاطه بالدم قد تحول إلى خلايا امتزجت مع خلايا الجسم ، وأن حرارة الجسم قامت بعملية التحويل خير قيام .

ولقد كنا في صغرنا أيضا حين نلهو على شواطيء الأنهار نقوم بعملية الحفر فيما نسميه بالطمي . فنجد بعد مسافات ، وتحت ضغط ما . . . من حرارة الجو ديدانا تكونت بعملية التحويل ؛ كنا نأخذها لنصيد بها السمك كما سمعنا أو عرفنا من الصيادين وشبان القرية ، ولقد قلت أخيرا في نفسي لِمَ لم يكن

قد خلق الله آدم بهذه الكيفية وهذا النظام مع قصد وعناية من ذات الله . على أن خلق الديدان أو جراثيم الجو لم يخل أيضا من قصد .

والثمار والنباتات تمثل المعادن فى واحدة أيضا من حالاتها . ويمكن أن نفهم عملية التكوين الأولى للحياة فى شكل أوسع بوقوع نقطة ما.. من الثمرة تستكمل كل أنواع المعادن المكونة للحياة ، وبنسبها المطلوبة ، وتحت ضغط ما... من حرارة الجو أو موجاته الكهربية يحدث ما نسميه آفة سماوية ، ينشأ عنها تكوين ديدان بالثمرة ، وقد تتطور إلى حشرة « سوس » فى مثل العدس والفول ، وقد نلاحظ عند كسر الفولة وعند وجود هذه العملية بها مادة مخاطية فى هذه النقطة تشبه المادة المنوية ، أو بمعنى آخر تشبه خلايا انحلت من جسم الإنسان فيصرفها الله بما يعرف فى علم الطب بخراجات ، ولولا رأفة بالإنسان لتحولت إلى ديدان . على أن بعض الأحياء وخاصة السمك لم يسلم من تحولها إلى ديدان . وربما كان خلق حواء من آدم بهذا النظام .

أما كيفية الإحياء فيكون بتوجيه صورة كهربية خيالية للحشرة أو الجنين إلى هذه المادة لتتشكل بشكلها ، وأما الناحية الفكرية لهذه الصورة فتكون مما يدور حول الأب من أفكار أثناء تكوين الجنين . أو من الحياة العملية التى ستستعد لها الحشرة وتركز فى خلايا المخ والأعصاب . « يَأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَاغَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الذِى خَلَقَكَ ؛ فَسَوَّاكَ ؛ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ »

ولقد أخذنى البحث ، والرغبة الملحة فى التفكير إلى عمليات عرفت بها معنى الحياة ، تلك العمليات : هى عملية التحويل فى المعادن بين حالاتها . ثم عملية التغذية أو الهضم ؛ وإلى أى مدى يكون انتفاع الأعضاء بها . ثم وقوع واحدة من هاتين تحت ضغط ما من حرارة الجو .

إن الحياة ليست بالشيء الهين عند الله . وإنها يجب أن تكون كذلك عند الإنسان . ولكن الإنسان حتى الآن ما عرف قدر نفسه « قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا ، قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ * قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا * يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ، وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا » .

لقد فهمنا أو يجب أن نفهم أن فى الإمكان تحويل الطين إلى مادة حديدية فى حالتها الأولى ، أو أقرب إليها بعملية الاحتراق ؛ كما نشاهد ذلك فى تحويل اللبن « الطوب الأخضر » إلى آجر ، وإن أول ما يتصاعد منها المعادن الكربونية[1] من صديومات وبوتاسيومات . وهى أيضا تساعدها على الاحتراق مع ما يلقى لهذه العملية من فضلات . وما الحديد فى أول حالاته إلا رمال انعدمت . أو كادت تنعدم فيها المادة الكربونية التى تغلب على الحجارة ورمال الصحراء . وربما كان فى الإمكان تحويل الآجر إلى حديد بعد زمن ما .. من دفنه تحت الأرض . وكل ذلك يمكن أن نعمله لو أعوزتنا مادة الحديد.

هذا شيء . والمعادن فى تكوين الإنسان والنبات شيء آخر . كلا !! لا أقول شيئا آخر ، إن المعادن هى هى ؛ ولكن كيف تحولت من تراب إلى غذاء . ومن غذاء إلى خلايا وأجسام . . . . إنها لقدرة . إن البذور لتنمو . وإن الماء ليمدها بقسطها من الغذاء . وإن عملية الامتصاص لتواتيها من التربة بما تشاء وفى خفاء . وإن ذلك مما لا يمكن أن يدخل تحت تجربة واختبار ،

(١) هذا تعبير باعتبار ما سيكون لشدة الامتزاج بينها « أى المادة الكربونية » وبين تلك المعادن .

أو يتحكم فيـــه الإنسان بأنبوبة أو مسبار . « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ » .

إن نظام الطبيعة ليس آليا كما يدعون . وإذا كان آليا فهل حادت شجرة عن نظامها أو خرج نبات عن خصائصه ومميزاته أو أبطأت الأرض دقيقة فى دورتها حول الشمس ؟ . . كلا !! وإنها والله لأهدى من الإنسان وأبعد عن عمايته وضلاله .

إننا لو سألنا : لم اختصت أوراق الأشجار من المعادن بالـكربون الملون لها وللأزهار لعمى ابن آدم عن الجواب . ألم يفهم أنه أسرع فى الصعود والتبخير المعدنى من أى معدن آخر ؟ . . . وألم يستعمله للهضم مع المشروبات ؟ . . .

وإن عمليات تكوين جسم الإنسان من حيث تركيبه المعدنى بالتغذية — لا أدعى إلى الاستعجاب من حيث قدرة كل عضو على استخلاص مادته الغذائية التى تساعد على تكوينه . أو بالأحرى المعدن الغذائى الذى يغلب فى تركيبه[١] .

إن أول ما يصادفنا فى ذلك قدرة الأمعاء على امتصاص المـادة الغذائية .

---

(١) يغلب على الـكبد والطحال فى تركيبهما المعدنى المادة الـكربونية التى سبق التعبير عنها ليؤديا وظيفة امتصاص عصارات الهضم من الأحماض المعدنية الأول للادخار والثانى للجمع . ويغلب على الأعصاب النحاس والبلاتين ليولدا حرارة زائدة لازمة لصهر الأغذية . ويغلب على ماء العين الفضة والنحاس فى حالة مائية لتنعكس عليها صور المرئيات أما إنسانها أى سوادها فمن نحاس خالص وأما حبته فمن عارصين ليحدث بينهما تفاعل كهربى يساعد على جذب الصورة كما يقوم بعملية السلب للزائد من حرارة الأعصاب وأما بويضات التناسل فى الذكور فواحدة من نحاس وأخرى من رصاص لسلب وضبط للشهوة فى آن واحد نتيجة تفاوت كبير بينهما فى درجة توصيل الحرارة وذلك يقوم مقام تصغير أو تكبير فى كرات الشحن — أما فى الأنوثة فقصدير بدل الرصاص ليزداد التفاعل اللازم للجنين وقد يستوى الذكور والأناث فى نصيبهما من القصدير فى الجلد وفيما يعلو أعضاء التناسل فقط .

فهذه مادة نباتية أو حيوانية تحولت إلى أحماض غذائية ؛ وتلك خلايا تكونت، وصارت أجهزة وفى قدرة على الامتصاص .

وإذا كان للأمعاء وعلى قدرة أن تمتص تلك المادة الغذائية فى حالة أحماض فكيف تحيلها إلى خلاياوعضلات ؟. . إنها تأخذ لونا قرمزيا أو قريبا منه من الأمعاء . وإن الأعصاب تمدها بالحرارة اللازمة فتصهرها ، وتحيلها إلى حالةدموية صالحة لمد الأعضاء والخلايا بما تشاء . فإذا حملتها الأعصاب ووصلت بهاإلى نقطة ما قريبة من الجلد ، ثم لمست برودة ظاهرية محيطة بالجسم جمدت ، وتحولت إلى خلايا وعضلات . وما بعد عن ظاهر الجسم بقى فى انصهار فى أوردته وشرايينه ؛ ليمد الجسم بما يشاء وقت الحاجة .

إن الدم خلايا منصهرة . وإننا إذا ألقينا بجزء منه فى ماء يغلى تماسك ، وجمد ، وصار كتلك التى نشتريها من محلات الجزارة بعد الطهى . وإنه مواد معدنية مختلفة . ولكن كيف يمتص كل عضو معدنه المشاكل له منه ؟ ... إن ذلك يمكن أن نفهمه بما نسميه بعملية الائتلاف ؛ وإن تلك يمكن أن نفهمها بقطعان من حيوانات مختلفة . هيجت واختلطت . فإذا زجت لتفرقة عاد كل حيوان إلى قطيعه بعامل ألفة سابقة

هذا وتأثر المعادن بالحرارة ، واختلافها فى مقدار هذا التأثر قد فهمناه ؛ وأقمنا عليه التجارب فى علوم الطبيعة . والمعدن هو هو يحتفظ بخصائصه ومميزاته

= وقد استنتج أيضا أن حقن سواد العين بالخارصين يعيد البصر لفاقده أما المخ فخلايا نحاسية قريبة من الانحلال . وأما الأذنان والأنف فمن الجرافين - وأما المعدة والأمعاء فتركيبات معدنية مختلفة حتى لا يتخلف معدن غذائى بعد عملية الائتلاف . وأرى أنها ينقصها المادة الكربونية المساعدة على الهضم وتقليل الفضلات الخلفية . ويمكن تزويدها بها بتناول شرب الملح بنظام .

فى أى حالة من حالاته . وبهذه الخصائص يستمد الجسم أو النبات ما يلزمه من حرارة الجو أو يحتفظ بها لوقت الحاجة .

هنا يمكن أن نفهم ... لِمَ يشعر الإنسان بالحرارة بعد الهضم؟... و بضعفها فى أثنائه ؟... ولِمَ يشعر بضعف الحيوية عند السمنة ؟ ..وشدتها عند العكس . أما فى حالة المرض فربما كان لضعف الصلة بين أعصاب العضو وحركته الدموية لضعف التغذية ، فتستمر الأعصاب مشحونة بالحرارة دون أن تجد لها مصرفا فى مهمة أو وظيفة .

وقد شاكل الله بين الحيوانات فى تكويناتها المعدنية من حيث تغلب معدن واحد فى نوع منها وضعفه فى آخر ؛ ليقع بينها شىء من التأثر والوحشية يساعدها على الحياة والاحتفاظ بالنوع . فالقط مثلا يمكن أن نفهمه أنه يغلب على معظم خلاياه ثم جلده نحاس فقط ، لذلك لا يمكن أن يقع تحت تأثيره الفأر الذى يمكن أن نفهمه أنه من زهر الحديد لسرعة تسلخ جلده لأقل لمس ؛ كما أن كليهما لا يمكن أن يقع تحت تأثير الكلب إذ يقارب الإنسان فى تكوينه ؛ لذلك كان بينهما ألفة غريبة . أما فى الحيوانات الكبيرة فبشكل إجماعى ؛ و بنسب مختلفة فى كل نوع ؛ حتى لا يؤدى هذا التأثر إلى غلبة نوع على نوع .

صراع بين جنسين على تفاضل

و بعد . . . فسنة الطبيعة تقتضى وجود هذا التأثر بين الأحياء ؛ وإننا لنلمسه فى منافسة بين أخوين ، وإذا زاد ربما تحول إلى حسد ، ودخلت فيه عوامل الانتقام . وهو بعد دافع من دوافع النهوض ؛ ليتزود كل نوع بما يشاء من أسباب الحياة . وإذا قصرناه على مستطاع أوجد تفاضلا ، وتفاضل أدعى إلى استمرار نهوض فى تجديد .

إن تجارب الحياة لا يمكن أن تؤثر فى النفس وفى تكوين العقل إلا إذا غرست على شدة فى الطبع ، وحدة فى المزاج ، وإنها لن تؤتى ثمرة إلا إذا كانت على انفصال بين جنس وجنس أو نوع ونوع لتتصل به إلى استقلال فى رأى أو اعتزاز بشخصية أو قومية ، وإن أطيب بذور المعرفة ، وأحسن غرس للحياة ما وصل إليه العقل بنفسه .

و بعد . . . فكيف خلق الله الجان ؟ . خلقهم على تفاضل فى التركيب المعدنى من الإنسان : « خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالفَخَّارِ ؛ وخَلَقَ الجانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ » . وهل كان الإنسان طيناً حتى فهمناه ، أو فهم نفسه كذلك . فقصر كثيرا فى حق نفسه . إنه سبحانه قد عبر عن ذلك فى تركيب آخر فى قوله: « وَأَنْزَلْنا الحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ» . وهل كان الجان من نار بمعناها اللفظى حتى فهمناهم أجساماً نارية كما يشاع على خطأ فى الدين . . . إن ذلك لا يعدو أن يكون تفاضلا فى التكوين بين معدن ومعدن ، وتفاوتا أو سعة فى تفاوت فى درجة التأثر بينهما بالحرارة .

إنهم ليسوا أجساماً بشعة كما يصوره لنا خطأ فى الخيال ، و إنهم يتمتعون بعالم علوى دونه عالم الإنسان ، وعلى حسب الثقل النوعى للمعادن والأجسام . و إن معدن تكوينهم ما يعرف بالنيازك ؛ وهى مجموعات من معادن أرقى وأخف ، وأخصها الذهب والنحاس . وهم يعيشون كما نعيش على ظهور الكواكب ؛ يأكلون ويشربون ؛ ولخفة أجسامهم امتازوا بالقدرة على أن يسبحوا بها فى الفضاء ، كما يسبح الإنسان على سطح الماء . وأما ذلك الفضاء فهو مياه غازية سريعة التطاير أخصها النوشادر والكحول . وقد تمتاز بطبقات ومستوى سطحى كما تمتاز بذلك مياه الترع والأنهار . وكلانا فى الواقع يسير فى طريق جهاد واحد . هو إحالة لجة العالم إلى حالة غازية بما ننشره من أضواء كهربية وحرارة فى الوجود . ولعل الحياة وصلت إلى شىء من ذلك حيث قال سبحانه وتعالى : « وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ ؛ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً » .

إن مبدأ هذا الجهاد هو الوصول إلى المعرفة ، وتجارب الحياة عن استقلال فى الرأى ، واحتفاظ بمبدإ مودة بين الجنسين يجنبهما تطرفا فى منافسة أو وقوعا فى حسد وعداوة . ولكنا كلانا فى الواقع كنا من ذلك على طرفى نقيض .

وحين خلق الله آدم كان الجان أو هذا الجنس من الخلق قد وصل فى معرفته أو مدنيته إلى شىء كان يخشى أن يكون موضع تلقين لابن آدم من البعض ، وإنه قد وصل بعقليته إلى إرسال أو تلقى إرسال نفهمه من قوله سبحانه : « إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ من حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ » فى حين أن آدم لم يصل بعد إلى ضبط فى رغبته أو شهوته .

هذا وسجود أو طاعة تقع لآدم أو لواحد من بنيه من شيطان أوما يسمى بشيطان أمر يدعو إلى الاستغراب .. إنه فى الواقع لم يكن إلا ابتلاء للجنسين

فى المعرفة، ومقدار تأديب النفس . وإنه سبحانه قد جرب بنفسه ذكاء الشيطان ومقدار اعتزازه بشخصيته وكان ما كان . وترك ابتلاء بنى آدم لشيطان على سياسة التخلى عن المسئولية فى مفاضلة بين قوم وقوم .

إن الشيطان أو ما يسمى بشيطان حسب العرف الخاطىء كان أعقل من ابن آدم حين سـجد لفرعون . وإن أمره بسجود وضع شاذ فى الدين ، وإلا . . . فكيف يطيعه وهو على ثقافة أرقى ، ويتمركز فى سمته من السماء .

إن عداوة بين الجنسين كان أمرا مقصودا ليحتفظ كل جنس بمقوماته وشخصيته . أو بمعلوماته ومعارفه . ولعل سجودا أو طاعة كهذه كان انتظارا لما يجد فى الإنسانية من رجولة يجب أن تطاع رغم تفاضل فى خلقة أو تكوين ، إذا كان أمر النهوض منافسة بين الجميع .

لذلك اختار أو اختير لشيطان سياسة الإمهال أو الانظار . على أن امتناعه عن السجود ما سماه الله عصيانا ، وما فى القرآن آية تدل على أنه عصيان . وإنما العصيان كان من آدم وابن آدم . « وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى . ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى » .

إن شعورا بأفضلية لا يؤاخذ عليها شيطان لوجود بذورها فى أصل تكوينه ؛ وإنما تؤاخذ عليها الإنسانية فيما بين الأخ وأخيه . وإن اعترافا بالهزيمة بعد كل منافسة أمر محمود فى الدين والأخلاق . حسما لنزاع ، أو دفنا لدوافع وحشية وانتقام . أو على الأقل ليرقى الإنسان فى شعوره وينتقل من حسد إلى شرف فى المنافسة . ولعله سبحانه كان يقصد ذلك من شيطان .

وإنه بعد . . سياسة فى حلم ومداراة ، ولو اتخذه الإنسان مع المخطىء معه فى صلابة من رأى لعاد من نفسه بعد حين إلى صواب ؛ وإنه بعد . . وبعد نيل

الإنسان قسطا من التربية والتعليم طريق يعيش به على نهج صالح فى الحياة .

هنا يمكن أن نقول إن الشيطان كان على خطأ فى تفكير فقط ، أو إعداد لجواب . وخطأ فكرى كهذا لا يعاقب عليه دين أو قانون ، و إنما يؤاخذ عليه شعور أو رأى عام . و إننا بعد . . . و بعد هذا الشوط البعيد المدى فى المدنية والثقافة يجب أن نتخلص من عداوة ذكرت لنا ولهم فى كثير من آى القرآن . وأن لا نحتفظ بها إلا لضعف فى شخصية أو ضعف فى دين، كما يجب أن نفهم أنهم لم يفرض عليهم موت أو فناء حين اختيرت لهم سياسة الأنظار ، و إن إيمانهم ، أومدار الإيمان عندهم الاعتراف بالمستقبل أو شىء منه لآدم وابن آدم .

إذا فقد كان بين الجنسين صراع فكرى لا غير احتفظ الله فيه لآدم بشىء من المودة . تقوية لجانب ضعف لمسه فيه ، وقد فهمنا كيف اختبر ذكاء شيطان ، أما ابن آدم فلم نعرف كيف ابتلى أو يبتلى من شيطان .

إنها فى الواقع كانت سياسة تدمير لما يبنى على خطأ فى حضارة ابن آدم ومدنيته ، وقد فهمناها من ثنايا التاريخ ؛ أما آدم نفسه فقد ضلت فى ابتلائه وتدمير جنته بحوث كل دين .

قال تعالى : « « وَيَا آدَمُ : اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ، فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ، وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ، فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ » .

لقد شاع فى كل دين أن هذه الشجرة كانت شجرة حنطة أو تفاح . ولكنه سبحانه إذا أباح له الأكل من كل شىء . ثم منعه من واحدة منهما كان مظلوما لا ظالما ... و إذا فأى ظلم تشير إليه الآية ، وأى شجرة تلك ؟ . . . وهل إذا أكلا حنطة أو تفاحا كانا من الظالمين ؟

إن الأمر على غير ذلك كما أفهمه ، و يفهمه العقلاء . و إن شجرة تقصدها

الآية هى تسلسل الذرية والأعقاب . وقد أراها الله له فى الحيوان ، وقد منعه من اقتراب زوجه حتى لا يكون له مثل ذلك قبل أن يعد لهم مهدا صالحا فى الحياة .

إن شجرة ملعونة فى القرآن لم تكن شجرة حنطة أو تفاح . وإن شجرة زقوم لم تكن إلا خطايا يقترفها الإنسان . وإنها تنتقل فى النطفة بالوراثة من سب ولعن وكفر وغضب حتى نشأ الابن على شاكلة أبيه . «وما جعلنا الرُّؤْيا التى أَرَيْناكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ . والشَّجَرَةَ المَلْعُونَةَ فِى القُرْآنِ . وَنُخَوِّفُهُمْ . فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْياناً كَبِيرًا » .

إن آدم لم يكن فى جنة بالمعنى الشائع فى الدين ، ولكنها جنة حسب العرف عند أهل الصحراء . وسكان البادية لنضوب معين الحياة بها . وإن تلك الجنة لا تعدو أن تكون مكانا خصبا عند ملتقى دجلة بالفرات . ولكن هل كان فيها ما تخرجه يد الصناعة من آنية أو غزل ونسيج ؟..الخ . كلا ! ! !

إذاً فكان يجب على آدم قبل أن يعصى ربه باقترابه لزوجه أن يفكر ، ويجيد التفكير فى إعداد ذلك ، حتى لا يظلم ذريته وبنيه بعرى أو جوع ، أو يقف بالتغذية معهم عند تناول حبة أو اقتطاف ثمرة ؛ أما كسوته وحده أو هو وزوجه ، فقد كفلها الله له إن لم يقرب زوجه . « إِنَّ لَكَ — وحدك — أَلاَّ تَجُوعَ فِيها وَلا تَعْرَى . وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيها ولا تَضْحَى » . وحين عجز عن الوصول إلى شىء من ذلك فى تفكير أو ضبط شهوة ، خلى بينه وبين شيطان ليعرف علة المنع ، إذ لم يكن قد فهمها من قبل ، وحين حملت زوجه حملا خفيفا فهم أنه مخطىء ، وحين منع عنه لباسه بدت له سوءته وظن أن أوراق الشجر تكفيه مؤنة التفكير فى ذلك ؛ ولكن هيهات . . . إذ اشتدت عليه وطأة الحياة .

وحين أيقن أنه غيرناج رجع إلى ربه عله يهتدى إلى صواب .

حينئذ احتدم الخصام بين إنس وجان ، ووقعت بين الفريقين منافسة يريدهاالله فى الواقع للبناء والتكوين .

إن الحياة ليست هينة ، ولا يمكن أن تكون هينة ، ولا يريدها الله سبحانه أن تقف عند العرض الأدنى فى كل بناء وتكوين ، ولكنها يمكن أن تكون هينة بقليل من التفكير . وقد أوقع الله الفريقين فى مأزق ، وأراد أن يتخلص كل واحد منهما من مأزقه بتفكير أو حسن تفكير .

إن اختبار آدم من هذه الناحية كان طفيفا ، إذ لم يطالبه سبحانه باختراع فى اللاسلكى ، أو يبين له رأيا حديثا فى أسس التربية ، ونظم الاقتصاد ، وإن الأمر فى ذلك لا يعدو التفكير فى الكفاف .

هذا ما كان من أمر هذا الصراع . من حيث المبدأ ، ومن حيث أنه وسيلة إلى الحياة ، ومن حيث أنه نظر إلى المستقبل ، ولقد أخطأ فيه الشيطان هو أيضا فى حق نفسه ، وفى المبدأ من حيث أنه نهج وسياسة ؛ إذ لم يحتفظ له بشىء فى رد الخطاب ، يمكن أن يرجع به إلى نفسه أو إلى ربه إذا نهضت الإنسانية وجد فيها نبوغ ، وتلك أيضا صلابة توصم بها السياسة فى كل شىء ، فى نفس أو أسرة ، أو فى رئاسة وقيادة .

إن خضوع رئيس لمرءوس أمر واجب فى بعض الأحيان ، وإلى حد ما ... إذا رأى فيه نبوغا يمكن أن يستغله لصالح مدرسة أو مصنع . . الخ وإن ميدان المنافسة فى كل شىء يجب أن يسوده شىء من الحرية بين الأفراد ليكون النهوض عاما والتجديد شاملا ، وحتى لا يتسلل البعض تحت تأثير حسن فى رأى ، أو جمود فى مبدأ .

إن الشيطان أو ما يسمى بشيطان ما عدل عن رأيه ، وما صرح بتعديل فى موقفه ، و إنما ذلك يعرف بقرائن الأحوال ، ولعل ذلك سياسة تنتهج فى بعض الأحيان . على أنه لابد وأن يكون مع ذلك قد ساد البعض شىء من الحرية ، آمن فى ظله من آمن من الجان عند بعث ما . . أو تجديد . أما هو فربما احتفظ لنفسه بالعثرة من الإنسان .

ولقد كان الجان على استعداد أن يلقنوا الإنسانية شيئا من التجديد ، ولكن الله سبحانه منعنا من ذلك ، وألقى فى نفوسنا كثيرا من العداوة نحوهم لنصل إلى ذلك بأنفسنا فيكون له أثر فى تكوين العقل وتربية النفس . وليقطع عليهم دوننا باب مجاملة ربما أخذوه سلاحا علينا ، أو جعلوه طريق مَنٍّ تضعف أمامه بكل تأكيد نفوسنا واعتزازنا بإنسانيتنا . . . « أما هذا الاستعداد فمتى و إلى أى مدى كان . . . كان عند نشوء عقليات أمكن أن تتصل بالسماء . نشأ عنها تنجيم . أو عرافة . أو سحر تطور كُلٌّ إلى تنبؤ أو طب أو إخبار بغيب ، وكلها قد نشأت فى أحضانها رسالات وأدب وشعر وعلوم » . قال تعالى : « وأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لاَ تَقُولَ الإِنْسُ والْجِنُّ عَلَى اللهِ كَذِباً ، وأنه كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا . . . وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وشُهُبًا ، وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ، فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ، وَأَنَّا لاَ نَدْرِى أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِى الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رشدًا . . . أى بلوغا إلى الحقيقة بعد رشد ونضوج فى العقل — . . . قُلْ إِنْ أَدْرِى أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّى أَمَدًا . عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ، فإنه يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا » .

تردد العقلية بين الهدم والبناء

وبعد . . . سياسة تلقين تنازعها تضليل . يضيع بينهما استلهام بيت من شعر ،أو عزيمة من سحر !! فمتى يكون تلقين؟ .أو يجوز سياسة فى نشر تعليم ؟ . ومتى يباح تضليل ؟ . و يتخذ سياسة لتدمير ؟.

إن الأرض لا تتصل بالسماء إلا عن علم . ومتى نبتت فيه نابتة لابن آدم من تكوينه واستنتاجه استحقت أن تنمو وتزدهر بوحى أو إلهام من السماء .

هذا ومعرفة لتأليف بين عناصر الطبيعة لتكوين طلاء أو صناعة صابون ليست بأقل فى قيمتها الصناعية من تكوين جملة أو تأليف كتاب .

و إننا حين نسائل أنفسنا... كيف اهتدى ابن آدم إلى الفكرة الأولى التى بنيت عليها صناعة الصابون . أو لِمَ تزيل تلك المادة ما يصادفها من أقذار زيوتية أو دهنية تستحيل إزالتها بغيرها أو بعنصر واحد من عناصرها لنالنا كثير من العجب . ولكنها فى الواقع تجارب بنيت على تجارب ومشاهدات احتفظ لها بجانب رعاية من السماء . ولعل نوحا لم يتيسر له أن يبنى سفينته إلا بعد أن عرف شيئا عن الثقل النوعى للأجسام . . ومناسبة بين تجويف ومقدار حمولة شأن كل استنتاج .

هذا ومعرفة فى صناعة كانت أيسر على ابن آدم من حمل لواء معرفة نظرية أو علم عقلى . لوقوعها فى تجاربه ، واستخلاصها من مشاهداته ، ولو أمكنه أن يأخذ معها قسطا يوازيها من العلوم العقلية عن تفكير واستنتاج ما تدخل أو تحكم فى سياسته شيطان .

إن القدر النظرى الذى كان يحاول أن يصل إليه الإنسان فى تأسيس أسرة أو تربية نشء أو تكوين جماعة كان كثيرا ما يصاب بإخلاف من السماء . وإن الإنتاج الفكرى فى ذلك كان عرضة لتضليل ما دام لم تحققه مشاهدة أو يصل العقل فيه إلى يقين .

هـذا وتردد نظرية أو رأى بين طرفين مما اختلفت به الإنسانية . وشقيت به الحياة . ومادام هناك إمهال فى بناء ؛ ولو على جهل أو طرف ضعيف فى رأى فأوسع بها سياسة تضليل لهدم أو تدمير ؛ لتصل الإنسانية إلى صواب « وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[1] » .

وإذا كان الإنسان لم يضع لبنة صالحة فى بناء العقل فعلى أى أساس يستجدى له وحيا من السماء . وإذا كان هناك أفضلية أو مساجلة بين جنس وجنس فَلِمَ يكون توسع فى سياسة تلقين .

وبعد فإلى أى مدى كان اعتراف الشيطان بسياسة التلقين .

لقد قلنا إن الله سبحانه أراد من آدم وابن آدم أن يصل إلى المعرفة بنفسه . وإذا تلكأ فى فهم أوقعه فى شيء من الحرج ، أو تركه ليوقع به شيطان ، ليستنتج ، وتتربى ذاكرته على استنتاج ؛ ولينتهى سبحانه بعد من سياسة التلقين . وإنه سبحانه قد أخذ على نفسه ألا يلقن ابن آدم شيئا إلا إذا وصل إلى شيء من المعرفة يصح أن يكون نواة لبناء جديد .

(١) أى تعودون . فيعود كل إلى تجاربه يوم القيامة ليعرف ما فيها من خطأ وما فيها من صواب ويحاول بأى طريقة حسب فطنته وذكائه واستعداده الشخصى أن يتخلص من هذه الأخطاء ليبنى لمستقبله على صحيح تجاربه .

ولقد كثر فى القرآن الكريم آيات تحكيم للانسان أمثال قوله تعالى : « ثم يوم القيامة يحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون » والواقع أنه لم يكن هناك تحكيم غير هذا . « إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد » .

هذا ما فرضه الله على نفسه فى تكوين رسالة ، أو نشر هداية و إنه سبحانه قد احتفظ لنفسه بالجانب الأقوى من هذا البناء فى المعرفة ، وترك الأدنى لعالم أو ساحر ! . . يصل فيه إلى شىء . أما ما دون ذلك فقد تركه ليتخبطه شيطان أو خارج على شيطان .

تلك سياسة أو حكمة فى سياسة ، ومع ذلك فما اعترف بها شيطان وما تنازل بها عن مبدئه .

« وَمَا أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى . . . أَلْقَى الشَّيْطَانَ فى أُمْنِيَّتِهِ ، فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيم ، لِيَجْعَلَ مَا يلْقِى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ والْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيد ، وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ ، فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ؛ وَإِنَّ اللهَ لَهَادِى الَّذِينَ آمَنُوا إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

إن آدم حين عرف خطأه ، وحين رجع إلى ربه ، تلقى منه كلمات لا تعدو المبادئ الأولى لنظام الأسرة أو القبيلة ، أما إعداد الثوب ، وآنية الطعام فقد وصل إليه بنفسه بعد الحرج ، و إن ضآلة هذا القدر الملقن مع كل رسالة لم تسمح لشيطان بالسكوت ، إذ كان يريدها أيضا من إنتاجه لتصح بها المساجلة عندما تلتقى المعرفتان يوم القيامة . و إلا فهو على حق فى امتناعه عن تقديم شىء من الطاعة لآدم .

هـذا وما دام ابن آدم يتعثر فى طريقه إلى الحيـاة الصحيحة فالإحراج أمر يقره العقل ما دامت هناك مساجلة ؛ وما دام هناك غرض أسمى فى الحيـاة ، وما دام هناك نفاية لـكل تجربة ؛ أو على الأقل لتسرع الإنسانية إلى التخلص

من أخطائها . وهذا خير من بقاء على قديم أو استرسال فى ضلال .

إن إضلال شيطان لا يعدو أن يكون إحراجا لإنسان ما ... و بقدر ما... حسب حساسيته وشعوره فى الأولى والآخرة ، و إن النفس كثيرا ما تصل إلى الحقيقة عن طريق الخطأ أو الوقوع فيه . و إن تجارب الحياة كتلك التى نقيمها فى بوتقة أو أنبوبة اختبار . وقد تصل تجربة إلى نجاح وتحتاج أخرى إلى تغيير لخطأ فى نسب أو أوضاع . وإننا لن نصل إلى هذه أو تلك إلا بعد نظر ومشاهدة واعتبار .

لقد شاع على خطأ فى الدين أن الشيطان يأخذ الإضلال على طول الطريق . وذلك فى الواقع لا يقره أى عقل . إنه ليس له إلا العثرة الثانية من ابن آدم أما الأولى فمن عمايته أو انحلال فى عزيمته ، فإذا اهتدى و إلا فقد أظهره لربه على عجز وسوء بصيرة أو أنه على الأقل لا يصح أن يسجد له ، أو أن يطاع .

« وَقَالَ الشَّيْطَانُ : لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ . وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي . فَلَا تَلُومُونِي ، وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ، مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ، إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ — أى بما ألجئت إليه لأختبر ذكاءكم — إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » .

إن الشيطان فى الواقع لا يدخل إلى ابن آدم إلا حين يخطىء ، و إنه سبحانه ليلتزم جانب الصمت ليعرف المخطىء صوابه من عثرته . وعثرة بعد عثرة تصل العظة من النفس وتأخذ لها نهجا ما . . . صالحا فى الحياة .

إنه سبحانه أعز من أن يصحح أخطاء الإنسانية يوما بعد يوم . و إنه سبحانه

لا يأخذ لنفسه إلا جانب الهداية من ابن آدم . وأما ما ذكر فى آى القرآن من عداوة لشيطان إنما هى عبرة لابن آدم ليأخذ بها حذره فى ثانية الوقائع . فإن أجدت؛ ولو فى عزم، ومراجعة للنفس فعظة وهداية . وإلا فجمع لأشلاء كل تجربة تبتلعه سياسة هدم أو تدمير عند شيخوخة كل إقطاعية أو مملكة «وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا؛ فَفَسَقُوا فِيهَا؛ فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا» .

إن سياسة شيطان ليست سياسة استقرار حتى يعترف بها من السماء ، بل سياسة تركين يمتاز بها مبدأ عن مبدأ ، ويتفاوت بها رأى عن رأى ، لتختلف وجوه الأخذ به . وهى بعد سياسة خلق المشاكل ، ليصل العقل فى حلها إلى شىء

إن تنازلا ما ...عن اعتزاز بجنسية مما اختلفت به الحياة العقلية فى الأرض وفى السماء . وإنها لسياسة مقصودة من كلا طرفين ؛ حتى إذا ضلت الحقيقة طريقها وجدت لها أنصاراً من هؤلاء أو هؤلاء عند تكوين المذاهب وتركيز الآراء .

* * *

وبعد .. . فلقد أمكن لهذه السياسة من جوانبها الثلاثة قبيل بعث نوح عليه السلام ، أو فى القرن الأربعين قبل الميلاد أن تكون فى العقلية شيئا يسمى غنى وآخر يسمى فقراً تعددت بهما الأوساط . وأمكنها أن توجد فيها قوة تمييز تفهم به شيئا ما . . . يسمى خيراً وآخر يسمى شراً ، كما أمكنها أن تكون فى النفس حباً لأسرة أو تعلقاً بقرابة[1] ، ووطن فى خلية ما ، أو نوع من أنواع الحياة ، ونزوعا إلى التخلص من ذلك فى نسب أو هجرة .

(١) « ونادى نوح ربه . فقال : رب إن ابنى من أهلى . وإن وعدك الحق . وأنت أحكم الحاكمين . قال : يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح . » أى تركيز الإنسانية فى بقعة واحدة من الأرض لا تصلح به الحياة وسيؤدى إلى فقر أو حرب عند زيادة العدد فى السكان .

ولقد كانت تجارب الحياة(١) لذلك الحين كثيراً ما تخطيء أو تصيب . تخطيء في تعدد حوادث الغرق ، أو تصيب في كشف مجاهل الطبيعة بشكل صح به استبدال وطن بوطن ، أو نعيم ببؤس ، أو قرابة بقرابة . و بين هذه وتلك استطاعت تلك السياسة ، أو ساعدت على أن ينال فريق نيلا من فريق بلغة ما . . . في سباب أو مشاحنة . كما أمكنت في جانب ما .. من جوانبها الثلاثة أن يقول البعض لنوح : «مَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى ، لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِين » أى فيما تدعونه من كشف لمجاهل الأرض .

إن نوحا كان يجيب في احتراس وفى مدى هذا الا كتشاف إذ يقول : « وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ ولا أَعْلَمُ الْغَيْبَ . وَلاَ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ — كما تقولون — لِلَّذِينَ تَزْدرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا — أى لن يصلوا إلى أمنية في كشف مجاهل الأرض .

إن الله سبحانه ما أرسل نوحا ليبنى سفينة فحسب ؛ بل ليساعد الإنسانية على تجشم الأخطار . و يعلمها كيف تضع نواة بناء فيما وراء البحار . و إن رسالته ما وقفت عند حمولة واحدة لسفينته كما نفهمه في الدين . و بفضله انتقلت الحياة من شواطيء الفرات إلى ضفاف النيل . وحين شرف الوادى ناداه ربه «أَنْ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِنَّا . وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ . وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ . وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ . ثم يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيم » .

و بعد.. فهل اعترف الشيطان بسفينة نوح ؟! .. كلا!!! إنه لم يعترف بها ، لأنها أوحيت ، وأوحى تكوينها من السماء ، و إن جملة الاستهزاءات التى

(١) أي حياة الصيد .

ألقيت عليه ، ليتراجع في بنائها انتقلت إلى سياسة ترغيب وترهيب من الجانبين في حمولة كل فوج . ولو كان هناك إنتاج فكرى أو لغوى يجيد به نوح فن الدعاية لآمن به كثير .

لقد نجح نوح نجاحا ما . . . وكان لكل خلية من خلاياه بقية ما زالت تؤثر بقاء على فقر إبقاء لقرابة أو جنوحا إلى كسل ، وإنهم ما كانوا إلا ليتحقق فيهم جانب الهدم لرسالته . هذا شأن كل رسالة . هدم و بناء . و بناء على بناء : « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ. فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تعلمون . وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا ، لاَ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِين . ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ . فَأَنْجَيْنَاهُمْ . وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِين » .

لقد كان نوح أقدر على فهم الحياة من آدم . وقد أمكنه أن يخلق فن الملاحة ، ويقيمه على أساس استطاع به أن يقلل من حوادث الغرق . ولقد مد له في العمر حتى يبنى المعرفة على أساس ولو في علم مشاهد الطبيعة وتقويم البلدان.

وحين أتم رسالته كان قد تحقق للعقلية قسط من الآراء والأفكار عاشت عليه ؛ وقد تطور فيما بعد إلى عقائد في الدين . ومذاهب في الزواج . ومبادئ في طرق الكسب أو الأخذ بأسباب الحياة .

* * *

و بعد ... فهذا صنيع أو بداية صنيع قدمه نوح لذرية آدم . و إن توالى الأيام ربما رد هذا الصنيع لذرية نوح . وربما انتخبت الحياة منهما نسلا صالحا للبناء والتعمير . وربما انتقلت مع هؤلاء وهؤلاء بالوراثة صناعة نحت لآدم . و بناء سفن لنوح . فظهرت الأولى عند قدامى المصريين ، وظهرت عليها قوميتهم وظهرت الثانية على ضفاف الشام . وكانت نواة للفينيقيين . هذا بعد امتزاج الاثنين في معرفة أو مصاهرة .

النشأة العلمية

و بعد فلعل سياسة نوح قد أنتجت . ولعل خلاياه قد نمت وتحولت إلى إقطاعيات وممالك . ولعل الإنسانية قد برز فيها من يصلح للرئاسة . ولعل حياة علمية نشأت ، وأنتجت شخصيات ، ولكن إلى أى حد كانت هذه الحياة أو تلك العقليات . ! إن ذلك شيء لم يقصه لنا التاريخ . ذلك التاريخ أقصد به تاريخ العلوم . ولعلى أقصد بذلك أن أدون للعلوم نشأة ، ولتكوينها بداية .

ولئن علم الله آدم الأسماء كلها فما امتنع أن يمد نوحا وأعوان نوح عن طريق الإلهام أو التلقين شيئا عن بواعث الحياة من ولادة واستنبات ، ولعل أول العلوم نشأة علم مشاهد الطبيعة وفن إقامة القرى والبلدان ، ولعلهم قد فهموا شيئا عن هندسة المبانى وتحديد المساحات . وربما قد فهموا شيئا عن الحقوق والواجبات . و إن ذلك كله من حيث مقدار العقلية ما كان يعدو أن يكون شبيها بعقلية تلميذ أو رحلة تلميذ إلى مزرعة أو نموذج من القرى .

ومن قبل كانت حوادث الغرق قد أوجدت فى النفس فرقا بين حياة وموت احْتُفِظَ به لمن فقد الحياة بشيء من الحب أو نوع من أنواع الطاعة أو العبادة إذا كان عاهل أسرة أو رب جماعة .

و إذا خشيت جماعة أن تضيع من الذاكرة ملامح عاهلها وتقاسيم وجهه نسجتها فى صورة من الحجارة ؛ ثم قدمت له شيئا من الطاعة ، أو العبادة اعترافا بما قدم لها من خدمة ؛ واحتفاظا بما له من شخصية وقرابة .

ولقد كانت صناعة النحت مازالت فى أيديهم ، انتقلت إليهم بالوراثة عن آدم حين كان يتخذ آنيته من الحجارة . هـذا إلى أن القوم كانوا قد مرنوا على فن المحاكاة والتقليد ؛ إذ كانوا يعمدون إليه كثيرا ليكون أداة تعبير إذا جمدت فى أيديهم ،وعلى ألسنتهم ألفاظ اللغة . وهذا أو ذاك مما جعل المصريين يبرعون فى التصوير وصناعة التماثيل . وتدعيم المعابد والصروح .

ولقد كانت صناعة تمثال أسبق إلى العقلية من أى فن آخر . وما زال هذا الفن يشغل حيزا كبيرا من عقلية الطفل . ولقد كنا على عفو نلهو به أثناء الطفولة وكنا نقيم به تمثالا لطير أو جمل . وكنا نتخذها من الطين . وقد أدخلت حديثا فقط فى نظام المدارس لاختبار ذكاء الطفولة ، و إعطائها شيئا من المران عليها تنتحى لها فنًّا إن عجزت عن مزاولة العلوم .

ولقد كانت وما زالت نشأة فنون أسبق إلى العقل من نشأة العلوم . وكان مجال السبق فيها وفى الحضارة واسعاً عند قدامى المصريين مما دعى إلى تعجيز أو تبطىء فيهما على يد كثير من البعوث ؛ حتى يأخذ العقل بنصيب من الفلسفة والعلوم . وحتى يُرْغَمَ على إجادة التفكير فيما وراء الطبيعة .

هذا ما يمكن أن نقوله عن الحياة العلمية إذ ذاك ، كيف نشأت . . . وفى أيدينا إلى أى حد وصلت . أما الحياة الروحية فيمكن أن نخوض إليها طريقا وفى أيدينا من الحياة العلمية غبار .

لقد سارت الحياة الروحية إلى التكوين مع النشأة العلمية ، وارتبطت بها ارتباط السبب بالمسبب ؛ وسار معهما الوحي كعامل تصديق بعد المشاهدة والاستنتاج ، أو المقارنة بين قديم و جديد . و إذا قلنا كل جديد لذئ هذه

العقلية فهمنا أثره فى النفس عند المشاهدة ، أو بعد المقارنة؛ وعلمنا مدى ذلك فى تثبيت دعائم الحياة الروحية والعلمية فى النفوس .

ليست الحياة الروحية قديما كما نفهمه نحن من أنهم كانوا يعبدون إلٰهـا واحدا ثم نـكصوا عنه إلى عبادة تماثيل أو حب أصنام ، بل الأمر بالعكس : و إنهم ما وصلوا إلى التوحيد إلا عن هذه العبادة . هذا للعامة . أما الخاصة وطبقة الرؤساء فقد كانوا يفهمون التوحيد كما نفهمه نحن .

ولقد كان الفرق شاسعا بين عقلية رئيس وفرد ما . . . من أفراد العامة . وكان مدار التعليم أو سياسته ، أو انتقـال فرد من عامية إلى تعليم ورئاسة يتوقف على نيله قسطا من المعرفة يؤهله ؛ أو يصل به إلى فهم شىء عن ذلك التوحيد . وقد كان الرؤساء كثيرا ما يضنون به لتبقى فيهم رئاسة أو سيطرة .

وقد كانت العامة تقدم لـكل رئيس شيئا من الطاعة أو العبادة ؛ لا على أنه إلٰه كما فهمناه عنهم ، بل على أنه وسيط إلٰه يمكن أن يتقبل عنهم حسناتهم و يتجاوز عن سيئاتهم . وتلك هى الوثنية ، أو الإثنينية فى العبادة ، عبادة من اثنين أو طرفين لطرف آخر مجهول ، أو عبادة لاثنين أحدهما هذا الطرف المجهول . فإذا عجزت العامة عن فهم هذا الطرف المجهول فى أثر من آثار قدرته قصرت عبادتها على هذا الوسيط ؛ على أنها لم تكن عبادة بالمعنى المعروف ؛ إذ لم تكن تتعدى الطاعة والخضوع ، وما بأيدينا منها هو تقويمها الأخير .

هذا . . . أما ارتباط أسباب بين سماء وأرض فذلك لم يفهمه إلا القليل ، وما كان ذلك لشىء إلا لأن اللغة لم تكن أداة تفاهم بالمعنى الصحيح ، كما لم تـكن هناك لغة عبرية كما يُظَنّ لإبراهيم . وما نزل عليه منها لا يتعدى ألفاظا أساسية فى أصل اللغة ، وفى ضروريات الحياة من سمع و بصر وأكل وشرب

وذهاب ومجىء . . . وكان المعنى يبنى على حرف فقط أو حرفين من هذه الألفاظ[1] . . . الخ .

لذلك كثيرا ما كان يعجز هذا الوسيط عن تأدية تعبير ، أو تبليغ معنى إلى عقلية العامة عن طريق اللغة . وكثيرا ما كانت تتصادم عقلية عامة ارتقت بعقلية عاهل أو رئيس . وكثيرا ما كان يقع سوء تفاهم بين الفريقين .

وقد كانت رسالة كل عاهل أو رئيس كثيرا ما تقف عند أقوال مأثورة عنهم ، تلك هى : « مُحالٌ عَلَى مَنْ يَفْنَى أَنْ يُزِيلَ النِّقَابَ عَمَّنْ لا يَفْنَى » . فإذا أدى هذا العاهل هذا المعنى فى أى عبارة توقف خصمه عن خوض سبيل ما . . . إلى المعرفة مكتفيا أو مقتنعا بما وصل إليه من زاد علمى ، وإن لم يصل به بعد إلى درجة التحقيق . لذلك كثيرا ما كانت تحشوه الخرافات .

هذا وإذا كانت العقلية فى أى عصر مجموعة من معارف العُصُرِ الأولى بعد الزيادة والتنقيح فأى عقلية كانت لهؤلاء ؛ وأى عصر أو معرفة سبقتهم حتى نحكم بأنهم كانت لهم عقلية تفهم التوحيد . إن ذلك كان مداره النبوغ عند البعض ؛ وعند الآخرين كان يقف عند عقلية ساذجة ؛ لا تزيد على أن تكون كعقولنا زمن الطفولة أو المراهقة .

إن طفلا ما . . . إذا سأل أباه عن شىء وجد بالمنزل ، وقال بلغته « مِينْ جَابُو » ، فأجابه أبوه على سبيل المداعبة : « جابو ربنا » إن الطفل لابد سيصدقه ، ولكن بعد يوم سيسأل : ولم لم يزرنا ، أو لم لم أره عند تقديم هذا الشىء ، أو تلك الهدية . إن الوالد إذا عجز عن الإجابة ، وشبهنا عجزه بانقطاع

---

(١) سنفرد لذلك موضوعا خاصاً

الوحى أو الإلهام بموت نبيّ أو رئيس أمكنا أن نفهم مقدار الحيرة التى كان يقع فيها هؤلاء وهؤلاء ، وإن خليفة نبيّ أو رئيس إن لم يكن قد أعد لذلك عدته ضلت العقلية ورجعت إلى القديم ، أو تناسته لتلهو فى أحضان الطبيعة ، كما يلهو الأطفال ؛ أو تلهو فى صناعة نموذج لآنية أو تمثال .

إن العقلية كان لابد لها من إنتاج على أكثر فأكثر حتى تنتقل بسرعة من محسوس إلى معقول ؛ وحتى تتربى فيها قوة خيال تمكنها من ربط السبب بالمسبب ، أو الوجود بالموجود ، ولكن الأمر كان من ذلك على نقيض ؛ فأبطأ بها المسير ، ووقفت بمعرفتها عند دائرة المحسوس .

هذه هى العبادة الأولى ، أو الخضوع الأول للإنسانية . خضوع كخضوع الطفولة زمن المراهقة ، وعقلية كعقليتها ، وليس لنا أن ننكرها عليهم ، إلا إذا استمرأها البعض ، وتشبث بها لغرض ما ؛ حين تتجدد المعلومات ، وترتقى عقول من العامة ، وتفهم أن تلك العبادة فى غير موضعها ؛ أو أنها يجب أن تنقل إلى حالة أرقى . . . وهذا موضع كل رسالة ، وإنه سبحانه « أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَه » .

كيف نشأت عقائد في الدين

لقد جاء القرن الثلاثون قبل الميلاد والقوم لا يعرفون رابطة بين سماء وأرض سوى حركة الشمس الظاهرية ؛ وحركة الكواكب . أما المسيطر على هذه الحركة ، أو المنظم لها فما زال أمره ، أو أمر توضيح قدرته غامضا في عقلية عامة أو عقلية رئيس .

ولقد كانت الحياة أو ما زالت مركزة في أسرة ، أو قبيلة . ولقد كانت أيضا أو ما زالت صلة بين حاكم ومحكوم مبنية على قرابة أو ما يشبه قرابة ؛ لذلك لم يكن غريبا عليهم أن يتعلقوا برئيس فُقِدَ أو طواه الموت ؛ ولم يكن غريبا أن يحتفظوا بصورته في تمثال[1] ؛ يتذكرون به ماضيه معهم ؛ وحسن صنيعه فيهم . وربما وصلت هذه الذكرى إلى حب يقرب من العبادة أو الطاعة عند المقارنة بين رئيس مضى ورئيس ؛ وربما أنكرها البعض على البعض عند تغطية عمل رئيس على عمل رئيس . وربما رآها البعض أن الأولى بها مَنْ على قيد الحياة ؛ أو من يستطيع أن يسدل على الأسرة شيئا من النعيم . أو من ستهبه الأيام للمستقبل . لهذا أو ذاك بقي القوم في حيرة من أمر دينهم وعقائدهم .

على أننا إذا حللنا كلمة « آشور[2] » تحليلا لغويا ، نجدها تقرب من لفظ

---

(١) قال تعالى « وقال : أي إبراهيم — إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا . ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض . ويلعن بعضكم بعضا » .

(٢) إله عبد لذلك الحين .

«آزر[1]». ومن لفظ. «أسرة[2]». ثم نجد. «الشين». قد تطور فى النطق، وفى بعض الألفاظ إلى حاء أو خاء، وهذا أو ذاك يدلنا على أن كلمة آشور، أو الأشورية كان يراد بها معنى التحوير فى العبادة. أو الأخروية فى الحياة؛ وعدم التمسك بالماضى. أو التطلع إلى نجابة فى الأبناء لتستطيع كل أسرة أن تثبت بهم مجد الآباء.

وإننا إذا تصفحنا التاريخ بعد إبراهيم وبنوة إبراهيم نجد أقواما فى شمال دجلة والفرات عبدوا إلها يسمى «أنا ليل». وبتحليل هذا اللفظ تحليلا لغويا نجده كإسرائيل وإسماعيل؛ ولعله يراد به نيل الله وعطاؤه كما يراد بإسماعيل سمع الله، وبإسرائيل نور الله أو هدايته ومؤازرته. ولعل أنا ليل هذا سبط من أسباط إبراهيم. ولعله أفاض على الإنسانية شيئا من النعيم أمكنه أن يخلد به ذكره فى نفوس القوم. وهذا يدلنا على أن الحياة لذلك العهد؛ وفى أكبر مساحة من الأرض كانت لإبراهيم وبنوة إبراهيم. وأن إبراهيم ما كان فى الوضع الذى فرضه له التاريخ.

ولقد يقص لنا هذا التاريخ أن الحياة على ضفاف دجلة والفرات بعد حين كانت فى شدة. وكثيرا ما نشبت الحروب بين أرباب الأسر والإقطاعيات من أجل التاج. أما ذلك التاج فلا أعتقد أنه أكثر من المقطع «أل» أو «إيل» يضاف إلى اسم الغالب كما فى السموءل. أى سماء الله ورحمته. وصمويل أى سكوته عندما يدلهم الأمر ويعظم الخطب. وإننا إذا حللنا هذا المقطع «إيل» تحليلا لغويا نجده القدر الفكرى أو اللغوى الذى وصلت إليه الإنسانية فى

(١) آزر هو أبو إبراهيم.
(٢) لمقاربة بين السين والشين والزاى فى وضع اللغة.

معنى التوحيد ، ولقد بقي اسما لله عند البعض حتى فى العهود القريبة من الإسلام وقد جاء فى المأثور عن أبى بكر الصديق حين أنكر على مسيلمة نبوة ، وحين سألهم عن أسجاعه أنه قال لهم : « إِنَّ ذَلِكَ مَا يَقُولُهُ إِلٌ ولاَ بَرٌّ » . ولعل هؤلاء هم الذين قال الله فيهم : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ(١) فإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ؛ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِين . »

ولقد بُعِثَ إبراهيم والعقلية تتنازعها آراء ومبادئ تحتاج إلى تصفية أو تركيز ، إذ وجد أقواما يفهمون الطرف المجهول الحركة الظاهرية للكواكب؛ وآخرين ما زالوا يعكفون على أصنام لهم وإن تقادمت بها العهود . ومن بين هؤلاء وهؤلاء بعضا يريد الحياة والتجديد ؛ وإنهم جميعا ما زالوا على سذاجة فى العبادة ومقدار الحجة . وإن إبراهيم أيضا كان على سذاجة فى فهم معنى التوحيد حين عبد الكواكب ، وحين راجع نفسه فيها ، ولكنه كان أبلغ حجة ،وأقدر فهما حين أَوْجَدَ لها فى عقليته خالقا ، وحين عارض القوم فى عبادة تماثيل ؛ وإن القوم كانوا يفهمون أنهم على سذاجة حين رجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ، وربما كانوا يفهمون أن العبادة يجب أن تقدم لآشور . إله مجهول أو إنسان منتظر ، ستحققه الأيام؛ أو ستتمخض عنه الحوادث، أو ستصل الإنسانية إلى فهمه بعد حين . وإن إبراهيم ربما كان من حججه معهم أن قال لهم ... «إِنَّ الأَوَّلَ والثَّانِي أَيْضًا قَدْ مَاتَ ، وإِذاً فَنُطِيعُ آخَرَ . أَوْ نَعْبُدُ آشُورَ » .

---

(١) يراد بهذا الحرف حرف التعريف وهو أل . وسنوضح كيف تدرج إلى لفظ الجلالة أى « الله » فى باب خاص باللغة .

إن إبراهيم لا يقصد إلها بكلمة آشور ، ولعله يريد ، إن ساعدناه على أداء المنطق أن يقول لهم : إن الحيـاة فى تجدد ، والطاعة لمن يولد من نوابغ الأسرة أو القبيلة أو الإنسانية عامة ، وهذا نص قد دون له فى شريعته ، وَأُخِذَ عَنْهُ ، أَوْ أُوخِذَ عَلَيْهِ بعد وفاته ، ووفاة من وليه من ذريته ، وكان موضع خلاف بين طبقة المفكرين ، وعلماء هذه الأجيال ، أما العامة فقد وقفت عقليتهم عند آشور على أنه إله و إنسان منتظر توهب له الحياة ، ولا يعتريه موت أو فناء . وأما هؤلاء المفكرون فما زالوا منه على خلاف ، أو من ناحيته فى صمت مادامت العبادة لا يقصد بها قليل أو كثير سوى تنظيم المعاملات ، وأحوال الاجتماع .

وعلى كل فقد تمكن آشور من العقلية على ضفاف بابل فى عهد إبراهيم ، و بعد إبراهيم ، وأمكن أن يخلص القوم من عبادة الماضى ، أو التمسك بالذكريات . لذلك أثر عنهم عدم الاعتناء بموتاهم ؛ إذ كانوا يرمون جثثهم طعمة لوحش أو طير . وهذا مبدأ تضحية وفداء عُرِف به إبراهيم حين همَّ بذبح ابنه إسماعيل ، وحين فهم أن شريعته ، أو فكرته فى الحياة لا يمكن أن تقوم إلا على فداء . وما زال إبراهيم يُجِدُّ فى الحياة حتى أقام إمبراطورية آشور . وحين دون أحد المؤرخين عن رجالها أنهم كانوا لا يعترفون بالآخرة ؛ ولا يرجون فيها حسابا بسبب إهمالهم لموتاهم كان يدون خطأ فى التاريخ ؛ ولعله رأى مستشرق متشبع بفكرة قدامى المصريين فى عودة الروح .

هذه عقيدة أو ناحيـة من عقيدة ؛ تؤثر المستقبل ، وتتطلع إلى كل جديد ؛ وما زالت فى كل عصر تنتظر آشور ؛ لذلك كلما جد جديد من عظماء

التاريخ ، ووقع فى قبضة الموت تركوه لينتظروا غيره ؛ لذلك لم يعرف عنهم تشييد معابد ، أو اعتناء بقبور .

وحينما كان إبراهيم يأخذ القوم بهذه العقيدة ؛ كانت بينهم فئة تؤثر الماضى ؛ وتستند عليه ؛ وتؤيده بعودة الروح .

وقد كان إبراهيم من قبل — وحين أراد أن يدعّم أركان دولته على شىء من التضحية ضد معانديه ، أو من لم يستطيعوا أن يفهموه — قد هم بذبح ابنه إسماعيل ليرى فيه من ربّه كيف تعاد الروح إلى الجسد ، ولكنه تراجع تحت تأثير من أنصاره مؤثرين تلك فى حيوان ، وحينئذٍ قال لربّه : « رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِي المَوْتَى ، قال : أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ . قَالَ : بَلى . ولكن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي . قال : فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ . فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ؛ ثُمَّ اجْعَلْ على كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا . ثُم ادْعُهُنَّ يأْتِينَكَ سَعْياً . واعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » وحين أصبحت تلك له آية ، اطمأنت تلك الفئة إلى مذهبها فى العبادة ، ولكنها كانت بعده موضع فتنة لا تقل عن فتنة الخوارج فى الإسلام .

لقد فهم العامة ، وتحققوا عودة الروح إلى الجسد ؛ ولكنهم اختلفوا أتعاد إلى جسم الدنيا أم إلى جسم جديد فى الآخرة . وما كان لإبراهيم لو كان على قيد الحياة ، والراسخين فى العلم من بعده أن يدينوا بالأولى ؛ وإن كانت من نصيب آخرين .

لقد فكر هؤلاء فى التوفيق بين ماض وجديد . ورأوا أن يحتفظوا للروح بجسد الدنيا . حتى لا يقول لهم أحد كما قال لهم إبراهيم من قبل : «فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُون» . وحينئذ تسابقوا لتدعيم فن التحنيط ؛ وكانوا من قبل قد فهموه أو شيئا منه فى تجفيف السمك ، أو تحنيطه . ولما تم لهم ذلك

أصبحت عودة الروح عقيدة أو ناحية من عقيدة ، واختصت بها فيما بعد فئة من ذرية إبراهيم عاشت مع خلاصة من ذرية نوح على ضفاف النيل قبل أن يعرف به نظام الأسرات بكثير. ولكنهما ما كانا يعيشان على وئام ؛ وما لبث أن انقسم بهما الوادى ؛ فاختصت تلك الفئة بشماله ؛ وارتد الساميون إلى الجنوب. وقد سمى التاريخ هذه الفئة بأنصاف الآلهة حينما اختلفوا هم أيضا على أنفسهم فى تنافسهم من أجل التاج . وحينما عجزوا عن تحقيق شيء من دواعيه ومؤهلاته كان الواقع يؤذن برسالة ليوسف . وهذه الفئة هم الأرباب المتفرقون الذين أفتى فيهم بقوله : « يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ : أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ . . . أَمِ اللهُ الوَاحِدُ الْقَهَّارُ . مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ ، وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ . . . » .

وبعد . . . فهذه نواة العبادة عند قدامى المصريين . عبادة لحفظ ذكريات على النقيض من عبادة آشور . وبين هذه وتلك كانت تلك التى تختص بمقطعين فى التسمية أحدهما لله كما فى إسماعيل وإسرائيل ؛ ولعلها كانت أقرب إلى التوحيد عند العامة من هاتين .

هذه هى الحياة الروحية إلى ماقبيل القرن العشرين قبل الميلاد . وقد كانت الحياة السياسية ، والأحوال الاجتماعية معها على وئام فى جميع بقاع المعمورة فى مصر وغير مصر . وإننا إذا وازنا لها بين حالتى نجاح ورسوب فإننا لا نستطيع أن نحكم لها بنجاح إلا فى نمط واحد فقط . ذلك النمط وهو الذى يحوطه شيء قليل أو كثير من الحكمة ، وضبط النفس . وهو الذى بقى لله مع الرعية بين بعث وبعث . واختص به الرؤساء أيا كانوا ، فى أى زمن ، وفى أى جيل .

إننا فى الواقع إذا حُدِّثنا فى قديم أو حديث ، أو جُودلنا فى شأن رئيس ما . . .

أو زعيم قبيلة فإننا يجب أن نعتقد أنه كان على إلهام ما . . . من ربه ، أو على الأقل أنه ما اختير إلا لأن لديه شيئا من الاستعداد للاصلاح والتنفيذ ؛ أما ما يثار حوله من غبار ، قليل أو كثير لإحراجه أو الاستبدال به . فذلك يرجع إلى مقدار ما عنده من ليونة وصبر فى السياسة ، وربما كان ذلك لاختبار هذه أو ذاك فيه . وربما دفع المجادلون إلى جدالهم فيه بإلهام ليعدل موقفه ؛ أو يقع به الاستبدال . أما إذا تحدثنا عن شالمترار وبختنصر ، وسنخاريب . . . الخ فيجب أن نعتقد أنهم مختارون ، أو مسلطون لإصلاح الرعية ، وربطها بين حقوق وواجبات .

مبدأ الاختيار للرئاسة (١)

لقد وصف الله الإنسانية بالجهل حين « خَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ » . وحين استنكر خبثا فيهم أو عليهم بقوله تعالى : « أَتَأْتُونَ الفاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرون . أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُون الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلون » . ولقد سجله الله نقصا فى الإنسانية ؛ لأنه يخالف الرجولة ويسير بالعكس مع تكوين الشخصية ؛ وفوق ذلك فهو يغلّب الأنوثة فى تسلسل الذرية والأعقاب ، كما يؤدى إلى الإشكال فى أعضاء التناسل .

وهذا الخبث وإن أدى إلى اعوجاج فى تسلسل الذرية بين أنوثة وذكورة فهو كذلك يؤدى إلى اعوجاج فى وراثة العلم والمعرفة

إن بنوة ما بنوة أفكار قبل أن تكون بنوة أجسام ، وإن رجولة تخضع لهذا الخبث أو تقع تحت تأثيره تلقن بنوتها فى الجنين جهلا وغباوة ؛ لذلك اتخذ له طريق تجنيب منذ نشوء المعرفة حتى لا تبطىء الإنسانية فى نشوئها العقلى ، أو تتخلف بها الحضارة عن ارتقاء وتجديد .

إن لكل يوم جديده فى المعرفة . ومعرفة البنوة حسب كل تجدد تأتى أرفع شأنا من معرفة الأبوة مهما كانت . فإذا فرضناها — وهو الواقع —

---

(١) هذا الموضوع لاأسجله كقانون أو مادة دستورية يقوم عليها اختيار موظف أو رئيس . بل أقصد به الناحية الإلهامية من السماء . وهو هو فى كلتا ناحيتيه .
ولقد كان لهذا الموضوع ناحية إيجابية كنتيجة لسياسة التعليم فى كل عصر بعد أن أخذ بها تطبيقه فى سياسة وظائف وموظفين .

جهلا وغباوة عند اقتراف هذا الإثم انتقلت بعامل الوراثة الفكرية فى البنوة جهلا وغباوة كذلك . وهذا بالطبع تبطىء لمعرفة الأبناء . وتوقيف لسنة التقدم . واعوجاج أو أداة اعوجاج فى تاريخ السياسة [1]

لقد كان كفى ما يلقى فى الأرحام من غباوة ، وكان كفى عبئا على رجال التعليم أن يخلصوا الأبناء من نوازع الأمومة التى انتقلت إليهم بالوراثة فى أصل تكوين الجنين .

إن مناط التعليم تربية المواهب فى النشء على شىء من الاعتزاز بالشخصية ؛ حتى يشعر أن له صفات مكتسبة يجب أن تصل به إلى رجولة ، وأن له شأنا آخر غير شأن الأنوثة ، ووظيفة أخرى غير وظيفتها ، وأن له تعاليم ونظما فى الحياة غير نظم الأمومة ، وواجبات الأمومة .

إننا إذا وصلنا بالأنوثة إلى مثل ذلك أمكننا أن نفصل بين طباع وطباع . طباع موروثة فى بنت عن أبوة ؛ وأخرى فى ابن عن أمومة ، وإننا بذلك نكون قد حددنا لكل موقفه فى الحياة .

إن عملا يسير بالتعليم على نمط سلبى خبث ينكره العقل . ولا يقره دين وإن عقلية تركن إليه لتدافع به عن كيانها يجب أن تقع تحت طائلة من العقاب الطبيعى . . .

إننا بعد أحوج ما نكون إلى رجال وشخصيات . وأحوج ما نكون إلى زعماء وقادة .

---

(١) أمثلة ذلك كثيرة فى التاريخ . وقد تكثر عندما تؤذن الحال بانتقال ملكية من أسرة إلى أسرة ، أو من فرد إلى فرد . . . الخ فتحدث أزمات ومصادمات حتى يجد هذا المبدأ تطبيقا يقره العقل . ويطمئن إليه التاريخ .

إن ستارا يسدل على هذا الخبث لا يكفى لتكوين رجولة . وإن من يقع فريسة له لا يمكن أن يأتى بذرية تصلح للبقاء ، أو تصح أن تكون أصولا صالحة لتوريث .

لهذا لم يكتب لقوم يونس ولا لذرية يونس بقاء لتعمير . « فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ ؛ فَنَفَعها إيمانُها ؛ إلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهم عَذَابَ الْخِزْى فِى الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَمَتَّعْناهُمْ إلى حِين » . « فاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُون » .

وإذا كانت الرئاسة قديما وعلى قلة مدارس ، أو أشبه بمدارس فالحياة إذا كانت أحوج ما تكون إلى فصل بين هؤلاء وهؤلاء ، أو تجنيب يقوم مقام سياسة التعليم

والاختيار لرئاسة لا يكون إلا عن علم ، والاستعداد لنيل إجازة فيه ، لا يكون إلا بعد ترفع عن مثل هذه الدنايا . وعلم لا يواتى المرء بحكمة وكياسة فأهون به فى منصب أو رئاسة ؛ لذلك كان عزيزًا عليه سبحانه أن تكون الهبة فيه مشاعا للجميع . « يُؤْتِى الْحِكْمَةَ من يَشَاء وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً . . » « ولُوطًا آتَيْناه حُكْمًا وعِلْمًا ، ونَجَّيْنَاهُ من الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ . إنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْء فَاسِقِين » .

والحكمة هى الرئاسة أو الاستعداد لها إن احتاجت إلى شرح أو توضيح . ولا يلهم الله إنسانا علما وحكمة إلا إذا ابتعد عن هذا الخبث ، ولم يقع تحت تأثيره فى صحبة أو مجلس . لذلك نرى العزة ومقومات الشخصية تستمر وراثة فى أبناء القادة والزعماء وسلالة الملوك . أما بنوة العلماء فقد ينعرج بهم الطريق ،

لاختلاط آبائهم بالعامة ، واعترافهم به ولو مدارة لهم ليدفعوا عن أنفسهم تقاليدهم العتيقة الموروثة فى هذا الشأن .

لعلنا نفهم بعد هذا مدى اضطراب العقلية فى أخريات رسالة نوح ليتناولها لوط بالتصفية والغربلة للأفكار . ولعلنا نفهم أن رسالة لوط كانت رسالة علم وشخصية ، وعليها قام الفصل بين حسن وقبيح ، وبها أُلقيت الحواجز بين شرق وغرب باعتبار موطن الرسالة ؛ لا باعتبارى كمصرى . ولعلنا نفهم شيوع الجمال فى أخريات رسالات بنوة إبراهيم ؛ ذلك الذى دعاهم إلى عبادة الأنوثة فى « إشتار » إلهة الحب والجمال . ولعلها كانت أخت آشور ؛ أو اتخذت للوصول بها إليه .

هذا وقد كان الهند وما وراء الهند من قديم مهبطا للقبح ، والجهل ، والمعترف بهذا الخبث بعامل الطرد بعد الغربلة عند كل بعث . أو التجنيب الإلهامى تحت نوازع طلب العيش . وما كان هذا الجانب لتقام به حضارة، أو بعث ، أو ملكية يعترف بها التاريخ إلا ما أخذوه بعد كل طرد أو تجنيب . ولعلهم كانوا يأخذون معهم جزءاً من الذرارى عن طريق السبى ؛ حتى صلح أن يكون بقايا ، أو أصولا لهذه البقايا التى كانت منها هذه الشعوب .

ولقد يدون التاريخ على خطإ أن ذلك ؛ أو بعضا منه كان انقساما للجنسية؛ أو العقلية بين سامية وآرية . والواقع أنه لا أساس لهذه التسمية على هذا النحو ؛ أو أنها تسمية تحتاج إلى تعديل ؛ إذ الآريون فى الحقيقة هم الطبقة المتعلمة المصاحبة لكل جيل ؛ وهم الذين أخذوا على عاتقهم ترقية اللغة إنشاء وكتابة ؛ وهم الذين كان يقع منهم أو فيهم هذا الطرد لهذا الخبث ، وكانوا أشبه بطبقة الكتاب فى كل جيل ؛ وإن تنازلوا فبمعلمى المكاتب ؛ لذلك كانت

لغتهم أقوم وأغزر مادة؛ وهذا ما حدى بالمؤرخ إلى هذا التقسيم. واللفظ فى كل لغة من أرى، أو أور. وإن تنوع فمنه قرأ ونظر ... وقد يسمى به عضو التذكير «أير».

ولقد كانت تصفيتهم الأخيرة على يد نبيهم «زرادشت» وبعده على يد أنصاره. أما تسمية جزء من الجنسية أو ناحية من العقلية على طول الطريق بسامية فخطأ لا يقره العقل ولا يعترف به قانون التوريث.

إننا جميعا لسنا أبناء نوح، ولا أبناء سام بن نوح. إن لكل نبى ذرية كما كان ولا يزال لمحمد ذرية، وإن أقدر ذرية على البقاء من ترث عن الجدود العريقة أكثر صفاتها، وما كان لها من طباع.

هذا وإذا بعث نبى بين قوم فهم بين حثالة أخذت الحياة من اعوجاجها، وأشلاء وقف بهم التوريث؛ ليتحقق فيهم جانب الهدم لرسالته، وبين جماعة مرنهم الدهر؛ ليكونوا أطوع فى البقاء؛ وأصلح لإصلاح الإنسانية. وهؤلاء وهؤلاء ذريات لنبوات سابقة عليه. وفى ظل هذا الإصلاح تنمو ذرية كل نبى جديد.

هـذا ... وإذا كنا؛ أو مازلنا ساميين فأين ذرية إسحاق وموسى وإبراهيم ... الخ.

إن نظام الحياة لا يمكن أن يخلى عظيما من عظماء التاريخ عن تحمل جزء من أعبائها بعد موته فى ذرية له؛ قصداً لتعمير، أو إتماما لرسالته فى الحياة.

إن الآريين على هذا الضوء ذرية لوط، وإنهم بعملهم هذا قد أتموا رسالة جدهم فى تجنيب، أو فى نشر معرفة وتعليم. وإن التاريخ يخطئ حين يدعى

أنهم كانوا لايعرفون الكتابة ؛ إذ لم يحتفظ لهم فيها بأثر ، و إن ذلك لايصح أن يكون علة ؛ إذ القوم كانوا على دين آشور ؛ و إن آشور ما كان يرضى للماضى بتدوين . ولقد كانوا فى خدمة مملكته ، فى دوريها الأول والثانى ، وكانوا فى ذلك أشبه بالفرس مع العباسيين .

ولقد كان للآريين ناحية إيجابية مع سياسة التعليم فى خلق رئاسات استطاعت أن تركز الحياة فى أسر ، وجماعات ، وقبائل حول دجلة والفرات، وفيما وراء النهرين .

ولقد استطاعت هذه الرئاسات أن تحتفظ لنفسها بناحية تربيبة أوسياسية فى خضوع ، أو قبول لاستشارة على العكس من سياسة فرعون ؛ إذ كانت تمتاز بالكبر ، والإسراف فى القول من غير حيطة .

وقد كان الله سبحانه كثيرا ما يؤاخذ فرعون حتى لايجره هذا الكبر إلى تأله ؛ لضعف الحياة الروحية إذ ذاك ؛ وحتى يجعل للاستشارة جانبا فى سياسته .

نشأة السحر وعلم الفلك

لقد كان لكل نبيّ أو رسول فكرة فى الحياة ؛ تتوارثها ذريته ؛ وتنمو معهم ؛ حتى يمتازوا بها ؛ وتمتاز بهم الحياة العقلية ، فى عصر ما من عصر التاريخ ، وإننا قد وضحنا ذلك ، أو بعضا منه فى رسالة نوح أو لوط . أما إبراهيم فلعلنا نهتدى بعد . . . إلى ربط بين عقليته وشيء من أحداث التاريخ .

إن إبراهيم كان رسول سياسة وجدل ؛ كما كان نبيّ علم ونظر ؛ ولقد كان كثيرا ما يستلهم السماء ؛ علّه يجد خبرا ؛ أو يصل إلى غيب . ولقد خلف ذرية صلحت بهم السياسة ؛ أو كانوا فيها على وئام إلى حين ، وحين اشتد بينهم نزاع على ملكية فسدت تلك القرابة ، واكتفى البعض ؛ أو تلهى عن الملكية بمداومة النظر ، ومزاولة المعرفة عن طريق الاستلهام ، مكتفيا بتربية حيوان ، أو رعى ماشية . ولعل هذا البعض وهو الواقع كان بنوة عمات لبنوة إسحاق وإسماعيل .

لقد نال الطرد أول ما نال بقية من أسرة « أوركاجينا »[1] وكانت قد نالت قسطا من التعليم على يد الآريين . وبعد تتابع الأحداث فى السهول والأودية كان لكل أسرة بقية كتلك . وهؤلاء وهؤلاء ما راقت لهم إقامة

---

(١) لفظ «أوركاجينا» عند تحليله نجده يتركب من « أور » فالراء فيه لمعنى الرجولة ، والواو لجماعة الإخوة والمقطع بأكمله لمعنى التعليم الخاص بالذكور . أما الكاف فللنمو والكبر ، والجيم للمجىء والمقطع « نا » ضمير جماعة المتكلمين ، والمعنى الجملى لهذا اللفظ : الأخوة قد حصلوا على إجازة فى العلم وجاءوا أو رجعوا إلينا .

إلا فى أعالى الجبال ؛ ليقتربوا منها إلى السماء ؛ وليتمموا منها معارفهـم فى علم الفلك ، أو التنجيم [1] . وربما اختارها البعض على غير هدى ، إذ لم يجدوا فيها من وسائل العيش ما يفى بحاجاتهم ، لذلك تعددت منهم الإغارات على الأودية حينا بعد حين .

وقد ربَّى هؤلاء الخيول وتعلموا الفروسية ، ليثأروا لأنفسهم : أو ينالوا شيئا من ملك أبيهم إبراهيم ؛ وما زالوا ينحدرون إلى الشمال حتى وصلوا إلى مقاطعة سميت بهم « أذربيجان » [2] أى مؤازرة إذبى جان .

ولقد تخرج فى تلك المقاطعة رجال أشداء ؛ لايقلون عن البدو فى شىء. ولقد أصبحوا العون الثانى لكل نبوة تظهر بالجزيرة ؛ لاشتراكٍ فى مبدأ الوحى والاستلهام ؛ أو مبدأ القناعة ؛ والوقوف فى حياة الترف إلى حدٍّ . ولقد كان قسطهم من السماء يزداد كلما داوموا النظر ؛ أو راعوا مبدأ القناعة ؛ أو ازدادت عنايتهم بتربيـة خيل وماشية . ولقد استدرجهم ذلك إلى تعليم الحيوان والطيور شيئا من الاستجابة عند النداء بشكل يدعو إلى الإعجاب ؛ وبالشكل الذى نراه الآن من سحرة الطريق ، ولعلّ هؤلاء السحرة بقية منهم ، ولعل ما نراه منهم بقية من تعاليمهم . وربما كان القدر الذى عليه الحيوان من الفهم يرجع إلى تجارب هؤلاء ؛ وانتقل فيه بالوراثة ؛ حتى رأيناه بارزا فى القردة والحمام الزاجل .

إن التاريخ يشهد لهم بذلك مع ناقة ثمود ؛ إذ كانت مبصرة ؛ وعلى

(١) التنجيم هو الأخبار بالغيب ، وكان فى الأصل ، وقبل أن تعبث به الشياطين تمهيدا لكل رسالة .

(٢) هذا بصرف النظر عن تحديد النطق بالزاى ، إذ لم تكن قد تنوعت إذ ذاك فى التعبير .

هداية فى توصيل الحمائل بدون قائد أو مرشد ، وإن لطيمة نعرفها فى الأدب إرث عن هذه الناقة . أما مسيلمة وحمار مسيلمة الذى تحدّى به الإسلام فإنا نعلم عنه الشىء الكثير .

إن تسمية ولايات اليمن بالشحر ، ومهرة ، وحمير ، وكذا تسمية العرب لأنفسهم بجحش ، وكلاب ، وأسد ، وثعلبة ، يرجع إلى هؤلاء . وحين قسمت النجوم إلى مجموعات ؛ وحين سميت بِدُبٍّ أكبر وأصغر . . . الخ ، كان كل ذلك أثارة لهم .

ولقد قلنا إن الجان كانوا على استعداد لمد الإنسانية بشىء من معارفهم ، ولكن متى وإلى أى مدى ... فهنا يمكن الإجابة على هذا السؤال .

إن اتصال الأرض بالسماء ليس مما يكال بالقفزان ، إنه فى الواقع يحتاج من الطرفين إلى كثير من الجلد ، والصبر ، ومداومة النظر ؛ حتى ينقطع المرء عن أسباب الدنيا . وإنه أيضا تتفاوت فيه أقدار الملائكة ؛ حتى لا يصادف إخلافا من شيطان . فما كان منه من الإنسانية على ضعف استخلصته الجان لأنفسهم ، وما كان قويا بنيت عليه الرسالات .

هذا وإن الساحر إن لم يداوم على جلده وصبره ربما أصيب بخبل أو جنون ، أو استهوته الشياطين . وإن الاستعداد لنزول وحى لا يقل فى قوته ، وروعته عن الاستعداد لحماية ملك نزل ساحة القتال . وقد وصف سبحانه كلتا الحالتين بقوله فى الأولى : « وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً (١) » . وفى الثانية بقوله : « إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا » .

(١) أى ازداد ضعفهم الجسمى لتمسكهم بالقناعة .

ولقد كان هؤلاء ذرية لماردك، أو ماردش؛ أو هو زعيمهم — واللفظ معناه مارد، أو متمرن راش سهما، أو أصاب شيئا من السماء — وقد نمت معارفهم الفلكية على يديه حتى سموا أضوأ الكواكب بإسمه ... ماردخ أو «المريخ» وقد بقيت هذه التسمية أو هذه الأحرف فى كثير من الألفاظ الألمانية كما فى «مارك» أو «الريخ» أو «الريش» أو «فردريك».

ولقد برع هؤلاء القوم فى التنجيم، وكانوا يستغلونه فى استهواء العامة إلى مبادئهم، وكان يصاحبهم فى كل ذلك جزء من السومار يين: يحملون لهم الدفوف، وعلى مزاميرهم ينشدون الأناشيد. وما زال فن الموسيقى مع الغناء يَنْمَّى وَيُجزَّءُ فى مزامير حتى تولى هذه الفنون عنهم داود وسليمان قال تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالاَ الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ المؤْمِنِين . وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ، وَقَالَ يأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَىْءٍ . إِنَّ هَذَا لَهُوَ الفَضْلُ الْمُبِين . وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُون . . . الخ» . . .

أما الناحية السياسية أو الدينية لهؤلاء القوم فقد اعترف لهم بها آل عمران أو العموريون؛ ومازال أمرهم يقوى والعموريون فى ضعف حتى انتهزوها فرصة، واستولوا على الأودية والسهول فى القرن العشرين قبل الميلاد: وحينئذ عُرِفوا بقبائل «الكاش شو» أى أخوك فى الكوخ: إذ كانوا يقومون على مبدإ المؤاخاة والتأسية بين الجميع. وحين كانوا يستنصرون بالعموريين ضد خئولتهم فى آشور كان يسمى التاريخ ذلك انتصارا ساميا على الآريين على تحريف فى التعبير؛ إذ العموريون هؤلاء لا يمتون إلى السامية بصلة.

وهم الخلاصة الصالحة للتعمير من ذرية آدم . وكانت تغلب عليهم الوداعة واللين . حتى غلبت الأنوثة على الذرية على العكس من بنوة يعقوب .

ولقد كان هؤلاء العموريون يمدون بنوة يعقوب وغير بنوة يعقوب بزوجات صالحات . وقد كانت هذه المصاهرات تأخذ شكلا أساسيا مع بنوة يعقوب ؛ حتى كان لها أدوار عدة فى تكوين بنى إسرائيل . أما مع غيرهم فكانت تقف عند نُبُوَّة ، أو أصول عريقة فى توريث دينى أو عقلى قال تعالى : « إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ . ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ »

وقد كان الكنعانيون الدور التكوينى الأول لبنى إسرائيل . وحينما ضعف الجانب السياسى للعموريين وقفوا فيه مع الكنعانيين على أرض فلسطين . فإذا أجدبت بهم هذه الأرض تسلل البعض لواذا إلى مصر لقطع الأحجار لفرعون كوسيلة من وسائل العيش ، وقد كانوا أقدر من غيرهم على ذلك لضخامة أجسامهم . ولقد تجمع منهم عدد صح أن يطالب به موسى من فرعون بعد ما نالهم منه من سوم وتعذيب .

والكنعانية لغة تسمية على تضاد من القناعة ؛ إذ كانوا لا يعترفون بها كمبد القبائل « الكاشو » . وقد كانوا فوق ذلك يُعْرَفُون بالجشع ؛ حتى كانت لهم هذه الأجسام . وكثيرا ما كان يشتد حسد ، أو كراهية بين الإخوة فى بنوة كل عاهل من عواهلهم ؛ حتى رأينا ذلك ماثلا فى إخوة يوسف .

هذا وحينما كانوا ينحدرون إلى الشمال كان يتكون منهم الشعب الحِثّى أو الحيتى ؛ ولعله كان يفضل الزواج بالأخت ، أو أخت الأم ؛ حتى غلبت عليه هذه التسمية . وما زال هذا الشعب ينحدر إلى الشمال ؛ حتى وصل إلى آسيا

الصغرى؛ ثم انتقل[1] منها إلى اليونان، وقد عرف فيه بالآخيين. وربما لم يعترف هؤلاء الآخيُّون بهذا التآخى إلا بعد أن عركتهم الحوادث، وأخذوا من تجاربها بنصيب. وقد نزل منهم جزء بجزيرة كريت. وحينما كان ينقل حضارة المصريين إلى اليونان كان ينقلها عن تآخٍ، وأواصر نسب مع الكنعانيين حَفَظَةِ فرعون وسحرته.

وحينما كانت فروع بنى إسرائيل تأخذ نموها على هذا النهج من القرن العشرين إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد كان يملك الحياة على ضفاف الفرات قبائل «الكاش شو»، ولقد كانت هذه القبائل كثيرا ما تتخالف مع الحثيين فى مبدإ قناعة، وزهد ضد فرعون، أو ضد الكنعانيين سكان فلسطين؛ حتى إذا ظهر هرون ليتمم رسالة أخيه كان له من الحثيين وحلفائهم خير عون ضد الكنعانية فى مصر أو فى فلسطين.

وما زال بنو إسرائيل منذ نشأتهم يحتضنون السحر عن هذه القبائل فى كل أرض يحلون بها حتى حمل لواءه كثير من علمائهم[2]

(١) انتقال شعب من بقعة إلى بقعة: أو فناؤه لتخلفه ذرية صالحة منه لا يكون انتقالا عاما، أو فناء شاملا؛ بل يكون ذلك فى بعض الأسر، وبمرور الزمن يفنى ما يكتنفها من قرابات ضعيفة.

(٢) لهذا الموضوع بقية ستجدها فى الموضوع التالى.

تعديل فى مواقف السياسة والتاريخ

— ١ —

لقد كنا نظن أن الفراعنة شىء آخر فى التاريخ ؛ كما كنا نظن أن الحياة الفكرية فى جزيرة العرب كانت بعيدة عن أختها فى وادى النيل ؛ حتى فهمنا أن قدامى المصريين كانوا جنسا مستقلا ؛ أو لا يمت بصلة ما . . . فى لغة أو تفكير عن الحياة فى جانبها الشرقى ؛ أو الحياة فى عروبتها الخالدة فى رسم لغوى أو تقليد سياسى .

ولقد استنكرنا هؤلاء الفراعنة كما استنكرهم القرآن . واستبعدناهم كما يُستبعد كفر فى عقيدة أو دين . وإن إنكارنا لهم كان يجب أن يقف عند استنكار لسياسة غاشمة ، أو رئاسة فى كبر وغطرسة .

إن فراعنة يتنكر لهم الدين ذرية لإسحاق أو بقية من ذراريه . وإن ظلما أو طغيانا وُصِفُوا به كان قد حذر الله سبحانه إبراهيم منه حينما رغب أن تكون الإمامة إرثا فى ذريته على طول الطريق قال تعالى : « وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ[1] فَأَتَمَّهُنَّ . قَالَ : إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا . قَالَ : ومن ذُرِّيَّتِى . قَالَ : لاَ يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ » .

---

(١) لقد كان هذا الابتلاء هو ترك ذرية له فى صحراء العرب لتعيش مع بقية من ذرية نوح آثرت سكنى القفار . وكان الله سبحانه يقصد من ذلك أن يكون له من ذريته إمامة فى زهد وقناعة كما سيكون له منهم إمامة فى بناء خلد على ضفاف الأنهار وحتى يكون ذلك فيما بعد مبدأ تأسية لمن يعانون شيئا من شظف العيش .

إن إبراهيم عليه السلام قد أدى ما عليه حين ابتلاه ربه بكلمات بترك ذرية له فى القفار ليتأسى بهم الجميع إذا أجدبت الحياة على ضفاف الأودية ، وشواطئ الأنهار ؛ وإنه كثيرا ما كان يستجدى عطفه سبحانه لذريته من بعده لتبقى فيهم هذه الإمامة . وكثيرا ما كان ينادى ربه « رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ . رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ . فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِى[1] إِلَيْهِمْ . وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُون » ، عله ينال شيئا من الموافقة أو التوفيق .

لقد كنا نَوَدُّ أن يستمر بيت إبراهيم فى وئام ؛ كما كنا نوَد أن يراعى جانبَ الرئاسة فيه جانب ضعف ، أو أقلية فى الإنسانية بُنِىَ على جهل ، أو فقر ؛ حتى يدرك رشده ؛ أو ينال شيئا من نعيم الحياة .

إن إسحاق قد أدى ما عليه فى تأسيس امبراطورية أبيه ، وترك ذرية قويت فيهم شخصيته فصلحوا للرئاسة إلى حين . وحين خرجوا على مبدإ أبيهم إبراهيم دَبَّتْ بينهم الفرقة ، والانقسامات فى أسرة أو ملكية .

وإننا إذا رجعنا إلى إسحاق ، أو عقلية إسحاق لنعرف لِمَ كان هذا الإخلاف فى التوريث نجده كان قد جاء من أمومة على عقم . وإن ناحيته الفكرية كانت ناحية اندفاعية فى تأسيس الامبراطورية تحت إمرة أبيه ، وتلك ما يتطبع بها الجنود ، ورؤساء الفرق تحت اللواء ؛ وهى فى الواقع لا تؤدى فى الذرية إلى استقلال فى الرأى ، كما تؤدى إلى شىء من الصلابة فيه عند تساوى الرءوس .

= أما التعبير بكلمات فيمكن أن نستدل به على ضآلة لغة الوحي ؛ وأنها ما كانت إلا على مقدار ما وصلوا إليه من فهم وإدراك لمعنى الحياة .

(١) أى تحبهم وترغب فى أن تتأسى بهم .

هذا إلى أن صلة بين عقلية عامة وعقلية رئيس كانت على شقة . و إن إصابة المفصل فى سياسة ما نجح فيه إلا الأنبياء ، وجزء من عظماء التاريخ .

إن عقلية لبنوّة إسحاق لم تكن أهلا ، أو على استعداد لأن تمتزج فى مصاهرات مع عقلية الساميين على ضفاف النيل . هذه لرئاسة . وتلك لإنتاج فى نحت ، أو ملاحة ، أو بناء سفن . و إنهم ما كان يعوزهم رئيس من بينهم . أو على شاكلة من أمرهم . ولو تنازل هؤلاء الرؤساء عن الاعتزاز بشخصيتهم ليعيشوا مع الساميين على هذه الحرف لامتزجوا بهم . ووقعت بينهما مصاهرات؛ تعين على توريث ، ولكنهم كانوا على خلف . وما أنقذ الموقف إلا يوسف حين استأثرها لنفسه .

إن عقلية إسحاق على ضفاف وادى النيل ربما كانت ادّخارا للشخصية إلى حين ؛ وحينما تضعف الرئاسة فى بعض الأسر . وربما كانت استكمالا للعقلية من هذه الناحية ؛ والوصول بها إلى شيء من اللين من ناحية أخرى ، بعد الاعتراف بالهزيمة ؛ لتتم المصاهرات الجديدة على شيء من المشاكلة فى الأخلاق . و إن ما حدث من تشاغب حول الرئاسة بين الأسر ، أو الاندفاع فى تيار المدنية ، أو الانسياق فى طريق الفنون فقط دون العلوم النظرية ، أو المجردة يرجع إلى ما كان يجدّ من مصاهرات على أساس غير صالح لتوريث ، كما يرجع إلى تلك الناحية الفكرية ، أو العقلية المأثورة عن إسحاق .

لقد انتظر الساميون من هؤلاء الأرباب إصلاحا لزراعة ، أو توفيرا لمحصول يعيشون عليه فما أجدى هذا الانتظار . وكلما حضرت قافلة من بقية نوح المتخلفة حول الكعبة مع ذرية إسماعيل إلى مصر لتبادل تجارى عادت بما لا يقضى الرغبة ، أو يقيم الأود ؛ حتى نال كل فريق من فريق فى تهكم أو ازدراء .

فهؤلاء وصموا بالرعاة ، وأولئك سموا أنصاف آلهة . وقد بلغ الحرج بالجميع إلى الدرجة التى تستأهل نبوة ، أو رسالة فى علم الزراعة وفلاحة البساتين . .

هذا وفى القرن الواحد والعشرين قبل الميلاد كانت رسالة يوسف . و بعث يوسف : ويخطئ قصص الدين أو التاريخ حين يستأخرها إلى عهد الهكسوس ؛ أو يستقدمها ليكون يوسف سبطا أو ابنا مباشرا ليعقوب ، و إنه لو كان كذلك لضمت رسالته إلى نبوة مباشرة لنُبُوَّة إبراهيم فى نسج الأقاصيص .

إن بُنُوَّةً لِنُبُوَّةٍ مباشرة لإبراهيم قد انتهت بالأسباط فقط ليعقوب وعمومة يعقوب قال تعالى : « قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ . وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا . وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ » .

إن للأنبياء لشأنا آخر غير شأن قصه القرآن لِأُبُوَّةِ يوسف فى قصة يوسف . وإنهم ما كانوا ؛ ولن يكونوا إلا فى منعة من قومهم و بنيهم . و إن قرابة لنبى لايعهدها العقل إلا على أتم ما تكون . و إذا كان هذا أيضا شأن يعقوب ؛ فهل يجيز العقل أن يمتهن يعقوب من بنيه ، ويرمى بضلال قديم . قال تعالى : « وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُون . قَالُوا تَاللهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَالِكَ الْقَدِيم » . ولو كان أبوهم هذا يُقْصَد به يعقوب لَفُضِّلَ له لفظ يعقوب .

إن لفظ يعقوب فى قوله تعالى : « إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قضاها » ما يقصد به ، أو من حوله إلا وصية قديمة ليعقوب ، متوارثة فى بنيه ؛ تلك هى ألا يدخلوا من باب واحد لكثرة عددهم ؛ أو خوفا عليهم من حسد ، وقد قضاها له عاهل إخوة يوسف ، وأبو يوسف و إخوة يوسف .

إن يوسف بعد . . . هو الذى أنقذ الساميين من أرباب متفرقين ، وهو

الذى وضع نظام الأسرات المعروف لقدامى المصريين . وقد كان يتخذ أنصاره من هؤلاء الرعاة لما لهم من سابقة معه أو عليه قال تعالى : « وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ . قَالَ : يَا بُشْرَى ؛ هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ». ولقد أمكن للحياة أن تمتزج فى مصاهرات بين هؤلاء وهؤلاء لتكوين تلك الأسر لقرابة فى العقلية ؛ أو عوداً بها إلى الأصل . وقد شاركهم فى ذلك يوسف والأرباب ؛ لأنهم جميعاً ما زالوا يحتفظون بأنسابهم ويعتزون بها لإبراهيم فى تسجيل حوادث التاريخ .

إن تاريخا تبتدىء به تلك الأسر هو تاريخ لإبراهيم . ولقد كان بعض هذه الأسر يدين لآشور فلا يدوِّن للتاريخ ، والآخر يعترف بالماضى فى شكل عودة روح ؛ فيدونه له مع الأصل بتاريخ الحادث الجديد . وحينما كانت تتطاحن تلك الأسر من أجل السياسة أو الدين كانت تضيع تلك التواريخ ، ولا يحتفظ للحادث إلا بالقديم . وهذا ما جعل المؤرخ يقول : بأنه كان هناك عصور مظلمة فى التاريخ .

لقد أنجب يوسف من مصاهراته مع ملك الساميين ابناً واحدا هو « مينا » ؛ ومن اسمه ؛ ومن الأمومة السامية اشتق لفظ « أمون » اسما للروح أو رمزا لها . وحين أدى رسالة أبيه ؛ أو أتمها ؛ وحين قضى نَحْبَهُ لم يكن له من الذرية من يصلح للملكية ؛ فامتلكها هؤلاء الرعاة . ومن الحالة الملابسة اشتقت لهم أسماؤهم : « خوفو ، وخفرع ، ومنقرع » أى خافوهم ، أو خف الراعى ، ومنقار الراعى فى الأشغال الشاقة ، وقطع الحجارة . وقد شاركهم فى ذلك بعض الكنعانيين ؛ ومنهم كان زعيم العمال « بِتَاحْ » أى رئيس البطاح ، والمهيمن على عمليات القطع بالوادى ، والموكل إليه تعذيب الأشقياء فى بطن الصحارى .

إن ملكية مصر كانت فى يد ملك يسمى « دِنّ » . ولعهده عرفت الخمور ، ومن اسمه كانت « دِنَانُ » لأوعية الخمور ، و إن ذلك قد عثر عليه منقوشاً فى صخور مقبرة تسمى مقبرة « حَمَاكَ » و إن حما كا هذا هو يوسف .

إن القرآن ليعتز بملكية ذلك الملك ؛ كما يعتز بوزيره العزيز ؛ و إن القوم كانوا يعتزون كذلك بيوسف ؛ حتى حفظوا له سكاكين النسوة ، وآنيهن بتلك المقبرة ، و إن التاريخ ما زال يجهل أنها ليوسف ، و إن موضع ذلك من التاريخ هو منتصف القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد . وتاريخ غير هذا لايقره العقل ، أو يضل فيه عند المقارنة بين أحداثه .

تلك هى الحالة السياسية التى كان عليها هؤلاء ، وذلك موقعها من التاريخ . أما سوء الناحية الاجتماعية ، أو أحوال الاجتماع فيرجع إلى ضعف العقلية فى محاولتها تحسين الزراعة ، و إجادة المحاصيل ؛ لتفى بحاجة الجميع ؛ و إن من الطبيعى أن تكون كذلك ؛ إذ هي العصر الانتقالى من صيد إلى زراعة . و إن القوم لم يكونوا قد عرفوا التوفيق بين الحالات الجوية ومواعيد الاستنبات أو الحصد ؛ وربما كان زرع الغلال قاصرا على بعض المناطق الدفئة . وربما كانت رؤيا ملك الساميين التى فسرها يوسف تنبؤاً بما ستكون عليه الحالة عند استنهاض الهمم ومحاولة الزراعة فى مساحات أوسع من بقاء سنبلات خضر وأخر يابسات . وربما وهو الواقع أن تلك البقرات العجاف هى التى سينهكها التعب فى الحرث ؛ وأنها يجب أن تستجم لتأكل غذاء لبقرات سمان تُؤخذ بدلها للحرث . وعلى كل فذلك تنظيم لحركة العمل الذي جاء به يوسف ؛ و إنه ما زال يشهد له أثران خالدان بالصعيد ، هما قلعتا سِمْنَة وخِمَّة ، وخِمَّة من خَمّ الأكل والتهامه بشره مع صفير من الأنف ، وعندها كان مركز أخميم .

إن يوسف وخلفاء يوسف قد وضعوا علم الفلاحة على أساس ؛ و إن الأمر لم يقتصر على هذا ، أو على ضفاف النيل ؛ بل تعداه إلى شواطئ دجلة والفرات . ولقد توصلوا له فيما بعد إلى التحكم فى مصارف المياه بإقامة السدود . وقد طوّقوا بحيرة موريس لتمد فرعا من فروع النيل لايزال يُعرف للآن باسم يوسف . ولقد تحققت رؤيا صاحبيه فى السجن ، وأخرجت الأرض من الغلال ما فَضُل[1] أن يكون غذاء لطير ، ومن العنب ما صح أن يكون عصيراً لخمر ، وذلك معنى قوله تعالى : « وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ . قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خَمْراً . وَقَالَ الآخَرُ إِنِّى أَرَانِى أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ . نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ؛ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِين . يَا صَاحِبَىِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُ خَمْراً . وأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ . قُضِىَ الْأَمْرُ الَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَان » . أما الصلب ، أو أكل الطير من الرأس فهو كناية عن عمل الفلاح . وأما تفاوت بينه و بين سقاية الخمر فترتيب لشأن وظائف وموظفين ، أو تنظيم للثروة بين دخل وخراج .

ولقد قامت بجانب هـذه التجارب الزراعية تجارب أخرى فى الإنشاء والتعمير . وما زالت تلك التجارب فى طريق الإجادة والتحسين؛ حتى وصل المصريون بها إلى نهضة لامثيل لهـا فى الزراعة والفنون من بناء ، وتصوير ، ورسم ، وتلوين . . . الخ .

هذا و إن تقاربا بين زراعة وتجارة فى سفن ، أو فى قوافل ممـا ساعد على

---

(١) عند بعث يوسف ، وفى تلك الآونة يتحقق قوله تعالى : « وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام . سواء للسائلين » وأربعة أيام : أربعة آلاف سنة قبل بعث يوسف .

تماسك الحياة الاقتصادية فى أكبر مساحة ، و بنائها على مصاهرات بين الجميع من غرب وفينيقيين ومصريين ... الخ . وما زالت تنمو فى الذرية والأعقاب ؛ حتى عرف القوم كيف تؤسس الممالك ، وكيف تقام المدن ، وكيف تدعم السياسة المالية لكل إقطاعية أو مملكة ؛ ولكن سرعان ما انقطعت تلك المصاهرات ، وانقطعت بانقطاعها تلك الإمدادات عن العرب ، وعادت الحال إلى أسوء مما كانت عليه .

ولقد كان الظلم أكثر ما يقع على الكنعانيين فى مصر أو فى فلسطين . وربما كان ذلك لعدم وجود أواصر قرابة بينهم و بين المصريين ؛ إذ كانوا ساميين ؛ أو لعدم الاعتراف بها لهم مع بنوة يوسف ؛ إذ كانوا قد أساءوا إليه من قبل ، وربما كان لاختلاف فى العقيدة وعدم الاعتراف بها لفرعون .

ولقد كان يسيطر على الحياة فى جانبها الشرقى قبائل « الكاش شو » ، ولقد كانوا على مبدإ أبيهم إبراهيم فى حياة الخشونة والبساطة فى العيس رعاية ، أو حلفا مع بنوة إسماعيل ؛ كما كانوا يؤثرون مداومة النظر فى سحر وعلوم عقلية على الاشتغال بنحت أو تصوير أو زخرفة و بناء ، وكانوا فى كل ذلك على العكس من المصريين ؛ لذلك كان ينتظر بين حين وآخر أن يقع بين الفريقين شقاق أو نزاع من أجل هذه المبادئ ، أو ثأراً من بنى إسرائيل أو لبنى إسرائيل .

هذا وقد أمكن لتلك المصاهرات التى كانت من بنوة نوح مع ذريه مباشرة لإسماعيل أن توجد لنوح ، ومن ذريته أنبياء هم : هود ، وصالح . وشعيب . ولقد ذكر هؤلاء أو بعضهم فى نسج قصص القرآن بعد نوح وقبل إبراهيم فقال تعالى : « أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ . وَعَادٍ . وَثَمُودَ ،

وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ . . . الخ » . وفى آخرى يقول سبحانه على لسان رسولهشعيب : « وَيَا قَوْمِ : لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي . أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ . أَوْ قَوْمَ هُودٍ . أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ . وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيد » . فوقع فى ظن البعض أنهم يتأخرون أيضا فى الزمن على إبراهيم ، ونسج لذلك أن عربا بائدة ، أو قوم هود ، أو قوم صالح كانوا قبل إسماعيل . والواقع غير ذلك ؛ و إنهم لم يذكروا على هذا الترتيب إلا من حيث القرابة لنوح . و إن مصاهرات أو تعارفا لإسماعيل مع « جُرْهُمٍ » اليمنية التى يحكى عنها التاريخ لم تكن لإسماعيل ، أو لبنوة مباشرة لإسماعيل ؛ بل كانت عند العدنانيين من ذريته ، وفى أخريات تلك الآونة من التاريخ (أى فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد) .

إن الله سبحانه قد وضح لنا نبوة متسلسلة فى ذرية ثلاثة من الأنبياء . وهم آدم ونوح و إبراهيم . أما نبوة بنوة إبراهيم فما غاب عنها قلم . أو ضل فيها فكر وأما نُبوة من بُنوة آدم فقد تركزت فى آل عمران . وأما نوح فله هؤلاء الثلاثة . أو الأربعة مع لوط . .

هؤلاء الثلاثة الأنبياء كانوا على مبادئ « الـكاش شو » ، أو مناصرين لهم ؛ ليأخذوا بالثأر لإخوانهم الذين كانوا يطردون من مصر إلى القفار بين حين وحـين ؛ أو ليبطئوا بتلك المدنية ؛ حتى يُجِدَّ العقل فى مزاولة الفلسفة والعلوم ؛ وحتى يكون هناك توازن فى العقلية بين علوم وفنون .

إن أول ثار ، أو أول تبطئ كان على يد «الهـكسوس[1]» . و إن أول

(١) لفظ هكسوس لغة من « هك » أى رُوح غائبة . قد نعت ، أو كثر إدلالها عن غيب ، « سوس » من الوسوسة ، وكانت فى الأصل على معنى الوشوشة فى العامية .

من حمل لواء تلك السياسة هو « هود » بعد أن أصلح من شأن قومه ، وانتخبت له الحياة رجالا أشداء هم هؤلاء الهكسوس .

ولقد كان هود وأعوانه يرسلون الإنذارات القوية ، وعبارات التهديد فى شأن هذه الفنون لا من حيث أنها بناء وتعمير ؛ بل من حيث أنها بنيت على أساس خاطئ فى الدين . قال تعالى : « أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ . وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ ؛ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ [(١)] . وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ » .

ولقد كان هؤلاء على حق فى توجيه هذه الإنذارات ؛ إذ القوم لم يصلوا بعد إلى شيء من السعادة الخلقية . أو الدينية يستأهلون به هذا النعيم . وما كان لم يكن ظلما ؛ إذا رأينا بجانبهم أقواماً يشقون ؛ لبذر شيء من القناعة فى النفوس ؛ وشيء من اللين فى الأخلاق .

ولقد كان أعوان هود ، وخلفاؤه بدءا على مبدئه . وما لبثوا أن تغيرت نفوسهم فحاكوا المصريين فى تقاليدهم الدينية ؛ وجاروهم فى حركة البناء والتعمير وعادت الحال إلى ما كانت عليه ؛ واحتاج الأمر إلى بعث جديد . فجاءهم صالح بناقته ؛ و بتهديدات من أنفسهم لأنفسهم من قبيل تهديدات هود ؛ إذ يقول : « أَتُتْرَكُونَ فِيمَا هَاهُنَا آمِنِينَ . فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ . وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ . فَاتَّقُوا اللهَ ، وَأَطِيعُونِ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ [(٢)] » ، وكأنه يريد بهم العودة إلى بطن الصحراء أو لا يجاروا هؤلاء المسرفين فى تقليد أو بناء .

---

(١) أى تعادون إلى الخلد بعد الموت على أساس عودة الروح إلى جسد الدنيا بعد التحنيط
(٢) المسرفون الفراعنة المغالون فى أفكارهم .

هذا ولقد أحدثت تلك التهديدات فيما بعد رتقاً فى الأخلاق ؛ إذ فهمها الناس سياسة ، ومبادئ تتبع ؛ فضعفت روح العمل فى النفوس؛ وساء فهم القوم لمعنى الحقوق ؛ فطففوا الكيل ، وأخسروا الميزان . وجاء شعيب ؛ ليوازن بين أخلاق وفنون ، أو بين حقوق وواجبات .

حينئذ ؛ وفى القرن الرابع عشر قبل الميلاد كانت مبادئ « الكاش شو » قد ضعفت فى النفوس. فأرادوا البناء والتعمير؛ فبنى فريق جنة اليمين. أو اليمن[1] وهم سبأ[2] . و بذر الثانى للكلدان . أى الخلدان فى الشمال . بعد أن صاهروا الفينيقيين ؛ ليأخذوا عنهم شيئا من فنون يوسف . أو نوح . وهذه وتلك قد عبر عنهما سبحانه بقوله : «لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ . جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ . كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ؛ واشْكُرُوا لَهُ . بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ . وَرَبٌّ غَفُورٌ . فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ . وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ . جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ

---

(١) و بعد قليل أصيبت بسيل العرم . وكانت منهم جرهم اليمنية التى صاحبت العدنانية من بنوة إسماعيل .

(٢) لفظ سبأ من سباق الخيل ، وقد بقى على أصله كما فى العامية . وقد كانوا يتسابقون بها من أجل المعرفة وتحقيق مشاهد الطبيعة ، وفيهم نشأ لفظ « فيلسوف » من فى ــ ظل ــ وساف يسوف أى يشم روث الحيوان ؛ ليقدر به الزمن والمسافة (على وزن مفعلة . من ساف يسوف) واللام للتعليل . ومنها المثل المأثور فى معنى الفلسفة : « جبت الأرض متفلسفاً » . وأما لفظ « ماروت » فمن الروث. وهو التحوير الأخير للفظ ماردك . وقد كان نصيبهم من المعرفة الغيبية يزداد كلما بالغوا فى استنشاق رائحته ، ولعل ذلك كان بناء للروح وتكوينا لصورة الكهربية من الغازات المعدنية المنبعثة من هذه الروائح . وهى الأعراف . وقد هدد بها القرآن يوم القيامة كل مخالف ؛ ولو فى تناول المعرفة على غير أساس فى سورة من سوره قال تعالى : « وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم » . ولن ذلك لن يكون إلا بناء للروح على نمط جديد وعلى معرفة تتجلى بها الساعة ، كما أنه عقاب لتفريط النفس فى تناول المعرفة عن طريق الاستقلال فى الرأى أو الاستنتاج والمجهود الشخصى .

أُكُلٍ خَمْطٍ ، وَأَثْلٍ ، وَشَىْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ . ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا ؛ وَهَلْ نُجَازِى إلا الْكَفُور » .

ولقد ضاع أمل القوم فى تكوين مزارع و إقامة بساتين . ولعل ذلك كان لأن عقليتهم كانت أقرب إلى علوم منها إلى زراعة أو فلاحة بساتين . وعلى غير جدوى كانت تُلقى أشعار الحماسة، ويؤلف القصص ؛ لإعادة شىء من مجد الآباء ؛ إذ كانت آشور قد ظهرت ، وقطعت الطريق بين الفريقين ؛ حيث وصلت إلى شواطئ البحر الأبيض . وتلك ما أرادها الله بقوله : « وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى[1] الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى[2] ظَاهِرَةً . وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ . سِيرُوا فِيهَا لَيَالِىَ ، وَأَيَّامًا آمِنِين . فَقَالُوا : رَبَّنَا : بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا[3] ، وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ . فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ، وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ . . . » .

وحينما ضعفت نفوسهم عن مزاولة السحر أمكن لإبليس أن يصدق عليهم ظنه « فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِين » . وهؤلاء المؤمنون هم النواة التى نشأ عنها الكلدان فيما بعد ؛ كأمة ، بعد أن كانت قرى ، وحينئذ وُجد للشيطان أنصار كما للتجان أنصار . ولعل شيطاناً حين رأى نجاح سياسة تلقين أراد أن يكون له فيها نصيب ؛ فانقطعت أو أخذت تنقطع بالجميع أسباب من السماء . ولقد سارت الحقيقة مع هؤلاء وهؤلاء بين صدق و إخلاف ؛ حتى وصمت العقلية بالحيرة والتردد .

— ٢ —

و بعد فلعل هناك تصحيحا آخر لتجاهل التاريخ ؛ ولعله كان لدولة على

(١) أى الكلدات عند نشأتهم الأولى ؛ وقبل أن يكونوا أمة .
(٢) هى قرى آشور .
(٣) أى زد لنا قدرا فى المسافة نصل به إلى معرفة .

ضفاف الوادى لبنى إسرائيل ؛ ولعلها كانت ثأراً للإسرائيلية من فرعون ؛ على أنها لم تعمّر بالوادى أكثر من مائة عام . وإننا لانستطيع أن نقيم لها الأدلة من ثنايا الآثار ؛ أومن ثنايا التاريخ إلا إذا استطعنا أن نهدم شهرة خاطئة لأسرة من أسره .

إن التاريخ ليشهد أن التدوين فى عصر الرمامسة قد عبثت به الأيدى وتناولته على خيانة بمحو أو تحريف ؛ وإنه ليقر بشهرة تكاد تكون كاذبة لفرعون واحد هو « توت عنخ أمون » . وإن العقل ليضل حينما يحاول أن يستنتج . . . لِمَ كانت له وحده هذه الشهرة . ومن أى طريق اكتسبت ، أو استحوذت مقبرته على هذه الآثار .

إننا فى الواقع إذا سردنا هذه الآثار وجدناها أشلاء لجملة عُصُرٍ ، أوعدد من السنين ؛ وإنها فى الواقع مما لم تجر العادة به أن يوضع فى قبر ؛ لتخلد به جثة ، أو تسترشد به روح ؛ وإنها يغلب عليها أن تكون أثاثا لمنزل ، أو متاع لبيت ؛ وإنه فى الواقع ربما استحوذ عليها ؛ ليكتسب بها ملكية ؛ أو ينال بها شهرة ، أو أنه يريد أن يتخطى بها التاريخ ، أو يرجع معه ؛ ليضع نفسه بجانب إخناتون ؛ حتى يستطيع أن يمحو هذه الفترة التى كانت لبنى إسرائيل .

إن القرآن لَيَصْدُقُ حين يُثبت وجوداً . أو رغبة لإقامة هذه الدولة ؛ حيث يقول سبحانه : « وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ ؛ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا . وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً . وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ . وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » .

إن وحيه سبحانه أمر يجب أن يأخذ طريقه إلى التنفيذ ؛ وإنه بعد ذلك وفى هذه الآية أمر لموسى وأخيه ؛ ليقيما به أركان هذه الدولة ، وقد كان موضع رسالة الأخوين ؛ وإننا سنحاول أن نستنتج . . . كيف استطاع لموسى وأخيه

أن يقيما أركان هذه الدولة ؛ ويثبتا لها وجودا على ضفاف النيل .

إن موسى حين استثقل الأمر نادى ربه : « رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . رَبَّنَا لِيُضِلُّوا ؛ عَنْ سَبِيلِكَ . رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ ، وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ ؛ فَلاَ يُؤْمِنُوا ؛ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيم . قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا . فَاسْتَقِيمَا ، وَلاَ تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُون » .

لقد كان أول حدث لزعزعة هذا البناء غرق فرعون ، ونجاته ببدنه ؛ ليكون لمن خلفه آية ؛ وإن ذلك الحادث ؛ كآية أثرت فى نفوس المصريين لم يحلله لنا التاريخ .

إن إخناتون حين أدركه الغرق : « قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ، وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِين » . وإنه من قبل هو الذى تربى موسى فى حضانته ؛ وإن التاريخ يحفظ له كثيرا من الأناشيد الدينية التى لاتفترق عن الوحدانية فى شىء ؛ وإنه فى الواقع قد أخذ الكثير منها عن موسى قبل هذا الحادث ؛ وإنه قد همّ بالإيمان أكثر من مرة ؛ فمنعه قومه ، أو منعته قرابته ؛ خوفا على ملكية ؛ إذ كانت تنازعهم فيها أسرة الرمامسة .

هذا هو شأن فرعون مع هذه الآية . ولقد كان على غير مرأى من موسى وهرون . وإن موسى وهرون ما وصلهما شىء عن هذا الحادث ؛ أو كيف أثر فى نفوس القوم .

إن العقل ليحكم مع القرآن أن هذا الحادث كان آية ؛ لها نتيجة ، ولها أثر فى نفوس القوم . ولقد آمن بها الكثير مع زوج إخناتون . وحين حاول

أحد الرمامسة أن يتزوج منها ؛ ليثبت الملكية فى أسرته بهذا الزواج ؛ وحين أرادها على مبدإ البناء ؛ لتخالف به مبدأ قبائل الكاش شو . قَالَتْ : « رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ، وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ . وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » . وقد آثرت على كل ذلك بيتاً من طين فى جنوب الصعيد أو فى « سوهاج[1] » ؛ حيث نشأت أسرة موسى وهرون .

إن هذا فى الواقع ينبؤنا بما كان عليه المصريون من خلاف بعــد هذا الحادث . و إن امتلاك أحد القواد « حورمحب » لزمام الأمور بعد إخناتون ما كان إلا انتظارا ؛ ليتفق القوم على الميراث . و إن ملكية لفراعنة ما . . . بينه وبين إخناتون من نسج الخيال ؛ على أنها فترة وجيزة ، والدس فيها ظاهر .

هذا . . و إن نبذة تاريخية . لتوت عنخ قد امتلأت بالكهانة ، وألفاظ الكهانة ؛ مما لم يُعْرف إلا بعد إخناتون بأكثر من مائة عام .

ولقد خرج موسى من مصر على عودة . أو رغبة فى عودة . وقد انقسمت العقلية بعد خروجه بين مؤمن وكافر . ولو كان له من نفسية قومه وأعوانه ما للقواد من جنودهم ؛ من نصرة صادقة ؛ و بثٍّ للسرايا ؛ واستطلاعٍ للأحوال لتشجع على العودة ؛ وكان له الأمر . ولكنهم كانوا أحوج ما يكونون إلى شىء من النظم الحربية ، وشىء من الصبر والجلد ؛ وحين حاول أن يبثها فى نفوسهم كانوا منه على خلاف . وضُرِبَتْ عليهم الذلة ، والمسكنة لا لشىء سوى تنشئتهم على الصبر ، والجلد ، وقوة الاحتمال ؛ إذ كانوا مترفين . واستنزالهم إلى ما يكون عليه الجندى من الطاعة ، وصدق المعونة لرئيسه .

---

(١) سوهاج من «سو» أى انظر ، وقد بقيت فى العامية كذلك . ولكن بالشين . وهاج يهيج . من هيجان أدوات السحرة .

ولقد حاول موسى أن يعود بهم إلى مصر ؛ عن طريق فلسطين ؛ ولكنهم لم يكونوا قد وصلوا إلى شيء من الجلد ؛ فضلوا الطريق . أو قالوا : « اذْهَبْ أَنْتَ . وَرَبُّكَ . فَقَاتِلا . إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُون » :

ولقد قام هرون من بعد موسى ، وكان له من الحثيين خير نصير ؛ إذ كانوا على كُرهٍ لإخوانهم فى فلسطين . ومن جهة أخرى كانوا يعرفون إخناتون ، ويرتبطون بأسرته بنسب أو مبدإ ، وعرف فى زواج « إخناتون = خيتيين »

ولقد كان على مصر إذ ذاك رمسيس الثانى ؛ وعبثا حاول استرجاع أملاكه بآسيا ؛ إذ كان قد اقتسمها هرون مع الحثيين ؛ وعاد شبه منهزم ؛ وتنازل عما كان عليه من غطرسة . ودخل فى الطاعة لهذا الحلف الأسيوي . وزوجه ملك الحثيين من ابنته ؛ ليؤول عرش مصر لبنوة منه . وقد كان له منها منفتاح

هذا وإنه لم يوافق القوم على مبدإ البساطة فى العيش ؛ إذ كان لقبائل الكاش شو بقية . وكان الحثيون معهم على هذا المبدإ . ولم تكن آشور قد وصلت إلى سواحل فلسطين . ولقد كان على حق . و إلى حدٍ ما . . . [1] حين نادى وزيره « هامان » ؛ ليبنى له صرحا علّه يطلع إلى إله موسى ؛ ذلك الذى يأمرهم بالخشونة ، وهذا التقشف الممقوت . ولقد أمكنته الحجة ؛ ليعارض بها هذا الحلف ؛ حين اعترضوا عليه فى بناء صرحه الخالد « معبد الرمسيوم » أي « للرمس يوم حساب ».

ولقد ساعد الرعية على تجديد مبانيهم ، و إعادتها إلى أحسن مما كانت

---

(١) أما أسلوب القرآن فى ذلك فهو أسلوب قصصي ؛ وللعبرة فقط . وهو مبنى على كثير من الإيجاز . أما الفراعنة الذين كانوا يتولون الردود على موسى فلم يكن منهم إخناتون ؛ إذ كانوا كثيرين ؛ وكانوا يتطلعون إلى الحكم من بعده ؛ وكان إخناتون كثيرا ما يكون ألعوبة فى أيديهم .

عليه ، وقامت حركة إنشائية لعدة قري ، منها قرية. أو أكثر لبنى إسرائيل .
وقد وقفت حركة الكشف عند واحدة فقط . هى ما عُرِفَتْ بتلِّ اليهودية .

وحين مات رمسيس الثانى قام ابنه منفتاح بإبعاد من قرابته الأسيوية ليمحو ما دونه أبوه من الآراء التى عارض بها هذا الحلف ؛ والتى لم تدخل لهم فى مذهب. أما ما دُوِّنَ له من انتصارات فكان من نسج خيال توت عنخ أمون ؛ ليُعَفِّيَ بها على تلك الدولة التى استعدت ؛ لتقف على قدمين بعد منفتاح .

قال تعالى : « وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ — استجابة لدعوتهم على فرعون — وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ . فَمَا اخْتَلَفُوا ؛ حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ . إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » .

هذا ما قاله الله فى شأن هذه الدولة ، وإنه لقول لا يَتَنبَّأُ لبنى إسرائيل باستقرار . ولقد غلبت عليهم شهوة المال؛ فوقعوا بها فى اختلاف على الرئاسة .

فريق يؤثر الآخرة . وثان يريدها بذخاً ونعيما ، وثالث يبغى التوسط بين الأمرين . وهذا . أو ذاك تمثله قصة قارون . قال تعالى : « إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى ؛ فَبَغَى عَلَيْهِمْ . وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ؛ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ ؛ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ . وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ؛ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا . وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ . وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ؛ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ » . وحين لم تنجح فيه هذه العظة ؛ وحين خرج على قومه فى زينته . « قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا : يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ ؛ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ » .

حينئذٍ كانت قد حدثت انقلابات عامة فى الأفكار حول هذه المبادئ .
وحينئذ انتهزت تلك الفرصة عمومة لرمسيس الأول فى طيبة ؛ واتفقت مع بنى إسرائيل المترفين، وتَرَضَّتْهُمْ بالمال ؛ لإعادة الملكية فيهم ؛ على أن يكتفى بنو إسرائيل بالكهانة . أما توت عنخ أمون فقد تزوج من أعقاب إخناتون؛ لِيُثَبِّتَ الملكية لنفسه بهذا الزواج . وقام ؛ ليطارد الذين أوتوا العلم من بنى إسرائيل إلى القدس . و بإبعاد منه نزل الأرض المقدسة قوم من الحثيين سكان كريت ، و برئاسة جالوت ؛ ليواصلوا سلسلة الانهزامات ببنى إسرائيل . وحين جدَّ الجدُّ « قالوا : لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً . نُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللهِ، قالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا . قَالُوا : ومَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فى سَبِيلِ اللهِ ، وقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيارِنَا وأَبْنَائِنَا . فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القِتَالُ تَوَلَّوْا إلاَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » . وحين بعث لهم الله طالوت ملكا . وحين تلكأوا فى اختياره توالت عليهم سلسلة الانهزامات ، ولم ينقذهم إلا داود ؛ حين أمكنه أن يوفق برسالته بين هذه الآراء .

ولقد فنيت فكرة الهدم برسالة داود وسليمان ؛ كما فنى بها ؛ ولوقتٍ محدودٍ زهدٌ وتقشف . وأصبح الجميع يراعون الأناقة ، والزخرفة فى البناء ؛ على نحو ما كان عليه المصريون .

وحين فنيت فكرة هدمٍ كان قد فنى معها معظم بنوّة صالح وهود . . الخ إذ لم يكتب لها ؛ كما أرادت[1] لنفسها بقاء. حسب المجازفة بالنفس ؛ أو حسب

---

(١) لذلك أطلق عليهم جميعا « عرب بائدة » ، وقد كانت الإبادة تكثر فيمن يناصر فرعون فى مبدئه الدينى منهم .

وراثة الأفكار . ولو بقيت لكانت معول هدم للإنسانية بين حين ؛ وحين ؛ وإنها ما فنيت إلا بعد أن وَرَّثَت العرب هذه الأفكار . ومن بقى منهم ربما من اتزنت فيه صفات النجدة ؛ وارتقت طباعه من وحشية إلى تضحية وفِدَاء . وإن العصر الجاهلى بعد ما كان إلا وراثة للخلاصة الصالحة من هذه الطباع .

ومنذ ذلك الحين ؛ وفى القرن العاشر قبل الميلاد ، أخذ فن العمارة يسير بخطًى واسعة مع رسالة داود وسليمان فى جميع أجزاء المعمورة ؛ تقليداً للمصريين ؛ وبمعاونة المصريين ؛ ومن تلك الآونة أيضا أخذت الحياة العقلية تسير فى اتزان . أو أخذت تنتقل من محسوس إلى معقول .

وإننا إذا رجعنا إلى قبائل « الكاش شو » نجدهم كانوا قد صبغوا الحياة المصرية بصبغتهم فى حب حيوان ؛ أو اعتزازٍ بحيوان . وفى مزج الحياة الدينية بالسحر . فى أناشيد وتعاويذ . وفى طريقة الرسم والتصوير ، وبنائها على رموز من الحيوان . وقد انتقلت تلك الصبغة إلى النحت ، وصناعة التماثيل ؛ حتى رأيناها فى أبى الهول وأشباه أبى الهول . وحين أراد « أبسماتيك » أن يقيم الحضارة المصرية على أساس صحيح ؛ وحين دالت دولة هؤلاء لم يَرَ داعياً يستوجب بقاء هذه الرموز .

هذا ... وقد كان الهند ، وما وراء الهند وسط هذا الصراع مأوًى لكثير من هذه الجماعات ؛ حتى رأينا تلك الروح ، أو الاعتزاز بحيوان يسيطر على حياتهم الدينية حتى اليوم ؛ وحتى رأيناهم يقولون بوحدة وجودٍ ، ويعترفون بتناسخٍ فى الأرواح بين إنس وحيوان . وربما كان منهم من نسج

للحيوان أقاصيصه التي رأيناها ، أو قرأناها فى كتاب كليلة ودمنة ؛ ولعلهم كانت لهم بقية اختفت من وجه الآشوريين فى قرية ما . . . أو مدينة من مدن الفرات ؛ فألّفت قصصا بين إنس وجان . رأيناه فى رسائل إخوان الصفا .

إن هذه الناحية الأدبية لهؤلاء ما كانت وليدة يوم وليلة ، أو وليدة ترف ؛ بل كانت وليدة حزن ، وألم ؛ تعاقبت بهما الأجيال والعصور . وإنها فى ذلك كأىّ ناحية أدبية لفترة تطوى ... من فترات السياسة والتاريخ .

هذا وقد صحبتهم إلى الهند رغبة فى زهدٍ وتقشف رأيناها فيما أخذناه عنهم فى علم التصوف . أما السحر فقد كان من إرث بنى إسرائيل ، وقد نبغ فيه علماء كنبوغ علمائنا فى الأدب إلى الدرجة التي يسايرون بها القرآن ، وقد عضَّدوا به رسالة موسى كما عضدنا الإسلام بالخطابة والأدب . ولكنهم ما لبثوا أن اختلفوا فيه على أنفسهم ؛ فظهر على يد البعض كآيات موسى فاحتفظ به للدين . وإن الآخر قال الله فيه : «وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا . فَانْسَلَخَ مِنْهَا . فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِين . وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ؛ وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ » .

وحين جاء السحر عن طريق الشيطان دخلته أشياء اعتبرت فتناً فى الدين ؛ على حين قد رجع بها آخرون إلى ما كانوا عليه من عبادات ؛ حتى كثر الشك والتأويل .

وحين أخطأ الشيطان ظن الخثيين فى تناول السحر رَمَوْا بفلسفتهم على شواطئ آسيا ، وآثروا الترف والنعيم ، واعتزلوا التوراة ، والتمسك بالدين ؛ أو تناولوهما بالتحريف ؛ فى حين أن آخرين منهم قد أخذ السحر معهم شكلا

طبيا فقط ؛ على أنه انتهى بأبولّو ، واسقولا بوس . وحين أخطأتهم المعرفة عن طريق السحر شَمّروا للوصول إليها عن طريق العقل . ومن هنا نشأت العداوة بينهم و بين سكان القدس ؛ حيث نجح السحر معهم ، وأخذ شكلا دينيًّا ، ونبغ فيه كثير من العلماء ؛ سُمُّوا أنبياء . و إن لم يصل البعض إلى درجة الأنبياء . وقد ظهرت التفرقة حتى فى التسمية ؛ فهؤلاء وقفت التسمية معهم عند مقاطع لا تدل إلا على السطو ، والسرقة لمعرفة الشرق . وهؤلاء فُضّلت لهم مقاطع ترتبط بالدين ؛ كما فى أوردن ، وأورشليم « حليم » .

والشعب الِحثّى حين أخذ تكوينه من العموريين . والكنعانيين . والجبليين . وقليل من ذرية يوسف أو نوح كان أنسب ؛ لتكوين الشعب الهيليني[1] ؛ وأشكل ؛ لحمل لواء المعرفة عن طريق العقل ؛ وأشكل ؛ لتكوين الفرق الأوربية فيما بعد . . . ولقد دعا ، أو يدعو ذلك بالطبع إلى شيء من الفوضى فى الحياة الزوجية ؛ لتعود كل ذرية إلى أصل من أصولها. وقد كان ؛ ونشأ عن ذلك ؛ أو من أجل ذلك الدوريون . أي الذين يأتون زوجاتهم بالمنازل ؛ ليوم ؛ أو أسبوع ؛ أو شهر ؛ أو ريثما يتم التوافق الجنسى بين الزوجين ، وقد يستمر إذا أنجب ؛ أو أوجد جمالا فى الأنوثة ؛ أو هِمَّة من الزوجة ؛ لتشارك الزوج فى جمع الثروة . ولقد أدَّت هذه التجارب التى جاءت على عفو إلى نجاح هذا الشعب فى بناء معرفته على العقل .

وقد نشأ الشعب الأيونى على تجارب من تلك . وهو من أين ، و إلى أين البيات ؛ إذ كانوا على زوجية تشبه زوجية البانسيونات ، وكانت الطفولة

---

(١) الهيليني لغة كان منه هل ، وأين عند تجزىء الألفاظ .

فيها تنسب للأم ؛ فإذا ظهرت فيها نجابة ، أو صفة مؤثرة احتفظها لنفسه أنجب زوج اختلف على الأم ؛ أو من قويت المشابهة بينه و بين هذه الطفولة . وقد نشأ بينهم لما ضلُّوا فيه شيء يشبه الاستخارة عند استشارة آلهة الطب فى ذلك . وقد نجح أپولُّو نجاحا على غير يقين فى إرجاع كثير من الذرارى إلى أصولها . ومن رأيه اشتق اسمه . أى « هو حكم بأنه أب لو كان فى الإبن كذا من صفاته » .

ولقد كان لهذه التجارب نفايات عُرِفَ بها الشعب اليونانى فيما بعد .. و إن العقل ليحكم بإرجاعها لآدم ؛ حين آثرت البقاء مع الذلة ، والمسكنة ، والفقر على الهجرة إلى الشمال مع هذه الفرق ؛ لطلب العيش .

ولقد كان للشرق نفايات تشبه تلك لا فى المسكنة ؛ بل فى جمع الحطام بأى شكل ، وعلى غير نظام . وقد عرفت بالزط والقرامطة . وقد كان نفى العباسيين لهم إلى اليونان من قبيل ردّ الأنساب إلى أصولها .

هذا . . . ولقد ظهرت طباعُ كثيرٍ من الأنبياء فى كثير من الفرق الأوربية ؛ امتازت بها إلى جنسيات عند نهضتها الأخيرة . فناحية دينية فى الألمان لإبراهيم . و بلشفية فى الروس لسومر ، والميديين ، ثم « للوط »[1] ؛ إذ كان يؤثر بناته بقوله فهؤلاء بناتى إن كُنْتُمْ فَاعِلين . أما الغال فليوسف ، وأما البريطان ففينيقيون[2] . . . الخ »

(١) السوماريون هم قوم لوط ، وقد نشأت بينهم ذريته ، وفيهم نشأت لغة الفكاهة والسمر والغناء . وهم فى الأصل ذرية لنوح ، وقد ساروا مع الحياة سير الآريين . هؤلاء يدونها بالعلم ، وأولئك يخففون وطأتها بالفكاهة والأدب والغناء . ومن ذراريهم من بنى « سماريا » عاصمة داود وسليمان ؛ وعلى عفو بنى العباسيين « سامرى » .

(٢) الفينيقيون لغة من الفنيق وهو فحل الإبل. وقد كان لها شأن عظيم في مدسقى=

ولقد كان انتقال الفينيقيين إلى شمال إفريقيا انتقالا لأواصر النسب والمعرفة لنوح مع الليبيين ؛ وما لبث هؤلاء أن نمى فيهم حب الاستطلاع ، وحب العودة إلى الشرق ؛ لينهلوا من معارفه على نهج ما كان عليه علماء الأندلس من المسلمين . ولقد كانت تصلهم أخبار كثيرة عن سليمان ، وملك سليمان عن طريق الفينيقيين ؛ وحين عاينوا الموقف لم يجدوا أنفسهم أقل جدارة من المصريين فى حمل لواء المعرفة ، والسياسة على ضفاف النيل .

وحين اغتصب شيشاق[1] كنوز سليمان اغتصب معه كثيرا من نسوته ؛ حتى صارت هذه سياسة ؛ نهج عليها الليبيون مع الفينيقيين . ولعل ذلك كان استكمالا لعقلية الفينيقيين فى السياسة إن أعوزتهم سياسة ؛ عن طريق الوراثة من الأمومة السامية المتخلفة فى ربوع العلم ؛ وعلى ضفاف الشام . وربما كان ردا للأنساب إلى أصولها بعد عوز فى المعرفة .

= الفينيقيين بالمتاجر . وربما كانوا يمتلكون التجارة أيضا على ظهور القوافل ؛ حتى غلبت عليهم هذه التسمية . أو كانت لهم كذلك من قبل . ثم تدرجوا منهـا الى التجارة على ظهور السفن .

(١) « شيشاق » ملك ليبى حكم وادى النيل لعهد سليمان بعد أن تنازل عن الحكم له كهنة بنى إسرائيل ؛ إذ كانوا قد استطاعوا بعد أسرة الرمامسة أن يؤسسوا مرة أخرى أسرة حاكمة ؛ وحينما هاجروا إلى الصعيد كانت هذه الهجرة لتلقى رسالة أيوب بالبشارة . وقد استطاع هؤلاء الكهنة أن يأخذوا المصريين بتعاليم بنى إسرائيل ؛ وأن ينشروا بينهم مذهب أيوب فى السحر . وكان يقوم على محبة القطط ، وتدليلها ؛ فإن أدى نتيجة عين لمن يفقد الصلة الزوجية . قط أو قطة ؛ لتصاحبه أثناء الإختلاط الجنسى ، وإلى هذه تنسب الفكرة التى تشاع عن المصريين من أنهم كانوا يعبدون القطط . وربما ينسب إليها أيضا قوله تعالى : « ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب » ومن هذه الآونة شاع استعمال لفظ « هر » أو « هير » تسمية لقط . أو دلالة لما يأتى عنه من خير . وحين صقله اللسان العربى نقله من هير إلى خير ؛ فى حين أنه لايزال على نطقه الأصلى فى أقصى الصعيد ، وعند قبائل من السودان .

ولقد احتضن هؤلاء الليبيون المعرفة على ما فيها من تضارب وتضاد ؛ وحين حسبوها وحدة متماسكة وقعت من نفوسهم موقع أى معرفة من عقول العامة ، و بنيت فى أفهامهم على شيء من الصلابة ، ولم يتيسر للقوم أن يتحللوا من فكرة إلى فكرة ؛ أو يخرجوا من رأى إلى رأى ؛ حتى نمت فيهم المبادئ الثورية على نحو ما عرفنا به الخوارج .

— ٣ —

. . . وحين ترك سليمان ذريته باليمن تركها ؛ لترث بقية من سحر ورثته عن جدودها بلقيس ، وقد تضاءل حتى صار عرافة ، أو شعوذة ، أو نتفا من الشعر فى بيت . أو بيتين ، وعن هذه البقية نمت فكرة التنبؤ بين الشعراء ؛ وما زالت تلك ؛ حتى جملها الشياطين مع الشعر لكثير منهم .

ولقد كان السحر فى معظم أطواره يستغل فى بناء الحياة الزوجية على شيء من الحب ؛ إذ كانت الصلة بين الزوجين فى شبه انحلال . ولقد استطاع سليمان برسالته أن يصلح من ذلك ما كان فى الإمكان[1] .

وقد عبرت باب المندب إلى إفريقيا ذرية له . وقد استطاعت هذه الذرية أن تؤسس لأيوب رسالة فى هذه البقاع ، وقد بنيت على فكرة « أحب شيئا أم لا ؟ » ، ومن هذه سميت البلاد حبشة ، ومن لفظ أيوب ، أو معناه « أى « آب يؤوب » سميت أيضا أثيوبيا ؛ إذ كان قد أحب العودة إلى أهله أو وطنه باليمن ، ولكنه لم يستطع ! إذ كان قد اغتصب . وحينئذ أراده الله

---

(١) قد يمت إلى هذا الإصلاح إصلاح أزواج بعض الأنبياء كما فى قوله تعالى « وزكريا إذنادى ربه : رب لا تذرني فرداً : وأنت خير الوارثين . فاستجبنا له ، ووهبنا له يحيي وأصلحنا له زوجه . . . الخ » .

على العودة عن طريق الوادى ؛ وما زال يجد فى المسير ؛ وفى تأسيس رسالته ؛ حتى وصل إلى الشلال الرابع ، وحينئذ كان قد أجهده الحر ، وأنهكه التعب ، فقال له ربُّه : « ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرَاب » . ولعل ذلك كناية عن تأسيس عاصمة ؛ لطول إقامة ؛ فبناها ، وعرفت بـ « نباتا » وحين أدركته الوفاة تولاها عنه باليمين أخوان له . هما « بعنخى » و « سبا كون » أى « عن أخى هذا الملك ، و « سبأ هى السكون » ، وما زالا فى جهاد ؛ حتى كان لهما حكم على ضفاف النيل .

وحين غلبت آشور على الوادى ؛ وأرادته أن يكون للمصريين اضطرت بقايا هذه الأسر . من ليبيين . أو أثيوبيين أن تعاشر المصريين على التجارة على ظهور السفن ؛ حتى يستطيع كلٌّ أن يعود إلى وطنه . وقد استطاعوا مع المصريين أن يَخلُفوا الفينيقيين فى فن الملاحة . حينما أخذ هؤلاء ينحدرون إلى الجزر البريطانية ؛ كما استطاعوا أن يوجدوا فى النفوس شوقا إلى تعرف منابع النيل بما قصوه على المصريين عن هذه المنابع ، وقد أثبتوا برحلة بحرية أن إفريقيا تحيط بها المياه ، ولكنها كانت فكرة ساذجة ؛ حين بنوها على أنها تنتهى عند باب المندب ؛ إذ كان نقطة انتقالهم إليها من آسيا ، وحين فهموا أن النيل ينبع من المحيط الجنوبى .

ولقد قام هؤلاء بحركة علمية فى الخفاء ، أو بعيدا عن السياسة أرادوا بها أن يبنوا معارف المصريين ، وحضاراتهم على شىء من الفلسفة ، أو التطلع إلى ما وراء الطبيعة ، وكانوا كثيرا ما يلتقون باليونانيين ؛ ليأخذوا عنهم خبرا أو معرفة لذلك فى طريقة أو مذهب . ولقد استطاع الزمن بفضلهم أن يوجد

على ضفاف الوادى فلسفة ؛ ولكنها كانت دينية[1] أكثر منها عقلية أو تريد التوفيق بَيْنَ بَيْن .

وقد عُرِفَ هؤلاء ، أو هذه البقايا عند الرومان والإغريق بالبربر . من « البر » أى « القمح » . كما عُرِفَ الفينيقيون بالبريطان أى « حملة الأطنان من البر » .

وهؤلاء البربر ؛ أو جزء منهم ؛ وهم الأيوبيون قد افترق بهم الطريق ؛ فجماعة آثرت شواطيء آسيا ؛ واستطاعت أن تعاشر الكلدان على قرابة ما من داود وسليمان ؛ كما استطاعت أن تكون لها بينهم قومية عرفت بالموابية أى الرجعة إلى الوطن ، أو أى معنى آخر حسب ما يتضمنه اللفظ . وقد عرفوا حديثا بالأرمن ؛ بعد مصاهرات ، أو بقايا مصاهرات مع الآراميين . وأخرى وهى الجزء الأعظم . كانت تؤثر أن تسير غربا ؛ حينما علمت أن جزءا من قرابة الجدود قد انتقل مع بقايا الحثيين إلى اليونان . وقد كان الانتقال يغلب أن يكون من « تساليا[2] » وكان البعض حينما يضيع أمله فى العثور على قرابة لجد من جدوده يقولون له : « Etly إيطاليا » أى إيت هذه النقطة من الأرض فقد طال فيها الغرس ؛ أو نمت فيها ذريته . وربما كان المقطع « يا » وكذا الحرف « Y » فى هذا التعبير للدلالة على الكثرة والاستبعاد ؛ إذ يتضمنها كذلك فى العامية . وهو الذى استبعد به الفينيقيون . أو استكثروا العودة إلى مدينة « صور » وكان من ذلك صوريا . أو التسمية لسوريا . وربما كان

---

(١) ليست العقائد الدينية إذ ذاك بحيث تصلح لكل زمن ؛ بل كانت دائما فى حاجة إلى تغيير لتساير تطور العقل .

(٢) « تساليا » اسم مقاطعة ومنه لغة . تسأل ، يا أوياه مقطع استكثار أو استبعاد .

هؤلاء الأيوبيون مؤسسى مدينة «روما» ؛ محاكاة للفينيقيين فى بناء قرطاجنة[1]

وقد بذل هؤلاء جميعا مجهودا كبيرا فى تأسيس صرح المدنية والمعرفة ، كما كانوا وصلة خير بين شرق وغرب .

هذا وقد استطاع الليبيون أن يتجهوا إلى قرطاجنة مع الفينيقيين لتأسيس معرفة أو عودة لوطن . وما زال الفينيقيون أو البريطان يحملون حب العودة إلى الوطن المقدس ؛ أو حب المساعدة لها ؛ حتى أخذ أشكاله المعروفة[2] فى التاريخ . وربما كان ذلك عوداً لأصول إلى أصول . أصولٍ قد نمت ، وصلحت للبقاء إلى أصولٍ قد عركها الدهر ، فنجحت فى ابتلاء ، أو تجربة من تجارب الحياة . وتلك سياسة الله ، وسنته فى خلقه . ولن تجد لسنة الله تبديلا .

(١) «قرطاجنه» لغة من قرطان تثنية قرط ، جنة . أى غرس هنا وفى شمال إفريقيا ، وآخر على ضفاف الأندلس ؛ للوصول بهما إلى جنة آدم ؛ إذ الوحى كان دائما يذكرهم بها ، ويطلب منهم السعى للوصول إليها . وحينما يئسوا منها اعتقدوا أنها فى السماء ، وأن الوصول إليها يكون بعد الموت . وعلى كل فالفكرة صحيحة من كلا ناحيتيها .

(٢) أقصد بذلك تكوين الإمارات الصليبية بالشام ؛ ورغبة الصليبيين فى امتلاك وادى النيل ، فى أواخر عهد الفاطميين ، وبعدهم فى عهد صلاح الدين الأيوبى ؛ وغير ذلك مما تسجله للآن أحداث السياسة والتاريخ . وربما كان ذلك ؛ ليظل من مات من الأصول على اتصال بنمو اللغة العربية ؛ وليكون من سيموت من هؤلاء كتراجمة لمعرفة الشرق فى الآخرة ؛ وليكون شأنهم فى ذلك شأن المستشرقين فى الدنيا .

رابطة في اللغة

لعلنا فهمنا أن اللغة ما كانت إلا إنشائية ؛ وأن تسمية لا يصح أن تسبق مسماها في لغة العقل ، وكنظام من نظم التربية والتعليم ؛ وأن تكوينا في الحضارة ، وبناء له في اللغة ما كان إلا اجتهادا .

ولقد أطنب علماء اللغة في اصطلاحات سموها أسبابا ، وعللا تفاوتت بها لهجة عن لهجة ؛ وافترقت بها لغة عن لغة . ثم قالوا : إن اللغة كانت واحدة . وحينما عجزوا عن الربط بين هذه اللغات قالوا : إن أصلا من أصولها قد ضاع .

ولقد فكرت كثيرا . كيف تكونت لغة ، وكيف افترقت إلى لغات : ففرضت أن الناس كانوا كتلة واحدة ، وفي صعيد واحد ، ثم تفرقوا أيدى سبا ؛ وانقطع بكل فريق أسباب المواصلات ، وأسباب التآخي والتعارف . وأن العزلة كانت تامة بين كل فريق وفريق . ثم أخذ كل يبني لنفسه حضارته ، ويستنبط لكل تجربة تسمية ؛ لتكون له لغة . فهذا يبني ويسمي بناءه عشا ؛ وثان يسميه كوخا ؛ وثالث يسميه بيتا ؛ ورابع يسميه « هوس[1] House » وذاك يسمى حيوانه حصانا ، وثان يسميه فرسا ، وثالث يسميه مهرا ، ورابع يسميه « هورس[2] Horse » .

(١) هوس : هذا اللفظ يمكن إرجاعه إلى اللغة العربية باعتبار أن الهاء حرف تعريف في العبرية ، وبقى مع اللفظ حتى صار جزءا من الكلمة . أما بقية اللفظ فمن الوس أى الوسوسة : أى إلقاء الحديث في سر ، أو عن جان ، والمناسبة في التسمية ظاهرة ؛ إذ إلقاء الأسرار دائما يكون في المنازل .

(٢) هورس : هذا اللفظ يمكن إرجاعه إلى اللغة العربية باعتبار أن الهاء أيضا حرف تعريف في العبرية . أما بقية اللفظ فمن الورس وهو خضاب الحناء ؛ وهذا اللون يغلب أن يكون لونا لهذا الحيوان ومنه كانت هذه التسمية .

هذا ما يقال ، أو تحديد لما يكون عند وقوع معرفة ؛ أو تجربة أخرى السكين ووعاء . أو لباب ونافذة ، وهذا فيما يضطر إليه الإنسان من وسائل العيش . أما فى الـكماليات فسيكون الأمر فيها على أشد الافتراق . فقد لا يتفق الزمن بينهم فى بناء نوع واحد منها ؛ وقد يسرع واحد فى الإنشاء والتجديد ؛ وقد يقف ثانٍ عند الـكفاف ؛ وقد يتردد آخرون مابين إنشاء ، أو وقوف على قديم . فإذا فرضناهم جميعا قد عادوا بعد زمن ما . . . إلى تعارف ، و إخاء كان لـكلٍّ لغته على ما فيها ، أو بينها من تفاوت فى نقص أو كمال ؛ وكان من الصعب أن تفهم أمة أمة ؛ أو يقف فريق على معرفة فريق .

حينئذٍ ، وعلى هذا الفرض فهمت سببا واحدا فرضته لهذا الافتراق؛ ولعله لم يكن من بين هذه الرموز ، وتلك الاصطلاحات . فهمت أنهم لم يكونوا على اتفاق عند التسمية لـكل جديد . هذا إذا فرضناها عزلة تامة ؛ ولـكن من يتتبع أحداث التاريخ سيجد الأمر كان على خلاف ذلك ؛ وسيجد أن الناس كانوا على تعارفٍ وصلة ؛ وأنهم كانوا على لغة واحدة إلى عهد قريب ؛ وأنهم كانوا على تقارب فى الموطن ، أو فى حالة تركيز . و إن هـذا السبب الذى فرضته لا يتحقق أيضا تطبيقه إلا عند الميلاد . أما فيما قبل ذلك . أو ما دون ذلك من أسباب فلا موضع له من عقل أو تفـكير .

هذ إلى أن اللغة من قبل ما كانت بالـكثرة فى الألفاظ بحيث تصح لقسمة . أو تسمح بافتراق ؛ إذ كان اختراع لفظ ، أو تـكوين شكل كتابى لا يقـل فى قيمته أو ظهوره عن حَدَثٍ فى عالم التأليف ؛ أو استنباط فى نظريات الفلسفة والعلوم . وكان سرعان ماتتناقله الألسنة ؛ ويشاع بين الجميع .

هذا كان عمل القوم ، وذلك تجديدهم. لنا ، ولهم . وإنه مما لا تقع به فرقة ، أو يصح فيه اختصاص .

قد يقال إن اختلاف البيئة له أثر في تفرقة ، أو اختلاف . والواقع أن البيئة واحدة فى كل مكان . فالشجرة على ضفاف النيل هى الشجرة على ضفاف الفرات . والأسد هو الأسد فى كل مكان . وإذا تعددت تسمية لهذه . أو ذاك فستتجمع هذه التسامى ، ويتعارفون فيها على الشكل والصورة . هذا فيما تتساوى فيه كل بيئة ، أو مجموعات متشابهة منها . أما فيما ينقصها ، أو تتفاوت فيه فسيصل إليها عن تبادلٍ تجارى ، أو تعارفٍ سياسى .

هذا وإن أمما أو قوميات يُدوّن لها التاريخ كانت على عنف فى السياسة بحيث لم يتيسر لكل واحدة أن تحتفظ بمعرفتها ، وتجاربها فى لغة وحضارة .

ولقد كان تفاوت بين حضارة وحضارة تفاوتاً بين تكوين لغوى وتكوين . . . وإن الأرقى من ذلك إنما يكون طعمة لقوم أولى بأس شديد يسكنون الصحارى والقفار ؛ وإن الحالة بعد كل بعث أشبه بحالتنا بعد الإسلام ؛ وإن إرث كل نبوة إنما يقوم على عمليات مزج بين ما تجمع من ألفاظ ؛ ليكون لغة لعصر جديد . . .

هذا ما رأيناه فى فناء لغة عبرية ، وأخرى سريانية ؛ لتخلفهما لغة عربية ، وهذا تقدير لما لم نره لما سبق من نُبُوّات ، وإنه لإرث باقٍ ، وتحفظه كل لغة فى كثير من الألفاظ ، وإنه لن يقف عند « أَبٍ » أو « أُمٍّ » . وغيرها من ضروريات الحياة .

ولقد كان من الخير أن كتبت الأمية على سكان البوادى ؛ ليتيسر لهم المزج بين هذه الألفاظ . بصرف النظر عن تحديد فى النطق تحدده لغة الكتابة ، وحتى

تبقى لسكل لفظ حريته فى التعبير. بصرف النظر عن أحرف العلة ، أو أحرف الإمالة ، أو تقارب فى المخارج . وإن ذلك بعد وسيلة لتزويد اللغة بثروة لا بأس بها من الألفاظ ، وأشكال الكتابة ، والتدوين ، ومنها . أو عنها يتولد اللفظ للمعنى الجديد .

* * *

إذًا فَلْنَعُدْ إلى الماضى لنعرف كيف نشأت اللغة . . . وكيف أخذت تفريعاتها الجزئية ؛ لتكون لغة لعصر جديد .

لقد كان الإنسان حينما حاول أن يضع لنفسه لغة . يضع للحالات الفكرية والانفعالات النفسية التى تجول بخاطره أشكالا ورموزا اعتبرت فيما بعد أحرفا . وكان يماثل فى الرسم بينها وبين صور من الجسم أو جزء منه . فالميم مثلا كان يقف فى التعبير بها وحدها عن الأمومة ، ويرسمها بالشكل الذى تكون عليه الأم أثناء الحمل . أما الألف فلشكله أثناء ما كان يصدر أوامره — أى واقفا — ولما كانت الأم كثيرا ما تتدخل فى هذه السياسة ؛ وكثيرا ما كان يخلف الأب عليها أكبر أفراد الأسرة ؛ لتبقى الملكية مركزة فيها — جاء فيما بعد من ذلك لفظ « أم » . ولفظ « أسرة » أما السين فلهذا الفرد . وأما ثلاث سنن لها فلعقود ثلاثة من عمره . أي حينما يبلغ الثلاثين ؛ وحينما يتكامل نمو أسنانه وأضراسه — وعند ما أمكنه أن يوجد للقراءة والنظر حرفا هو الراء استطاع أن يلحقه مع حرفه إلى الألف فكان هذا اللفظ . أى « أسرة » ، وربما جاء على هذا النمط لفظ « أمْر » . وحينما كان يضاف هذا الحرف — أى السين — فى التسمية مع الأعلام — عربية أو أجنبية — كان رعاية لجانب هذا الفرد فى شئون السياسة . أما إذا أريد به الحالات

الفكرية التى تجول فى النفس فكان يُقَدِّمُ معه حرف الراء . فنشأ لفظ — « رمس » — إشارة إلى تلمس روح الأم فى المعابد ، وقد انتقل هذا اللفظ أخيرا إلى معنى قبر ؛ كما تنوع من « رمسٍ » إلى « رمزٍ » حسب المقاربة فى النطق بين سين وزاى .

أما هذا الفرد إذا أريد به فردا آخر . ومن الأسر التى لا تقوم برئاسة فى سياسة ، أو تعليم فكانوا يخصصون له الشين . وقد تنوع فيما بعد إلى حاء للمصاهر ؛ كما اختص به اسم من الأسماء الخمسة ؛ أو خاء للشقيق بعكس التاء ؛ إذ كانت رمزا للأخت . أما الثاء فكانت للخالة . . ؛ أو الأخت البعيدة ؛ كما فى « أثيوبيا » ولما كثرت الإخوة كان لهم حرف الواو على عكس ؛ أو مشابهة فى الرسم من حرف الميم ؛ أو للدلالة على أن نموهم كان من الأم ، وفى حضانة الأم .

وحينما كانت تتداخل دلالات هذه الأحرف بعضها ببعض يَبْنُونَ للمعنى الجديد لفظا من حرفين ؛ فنشأت المقاطع التى ندرسها فى علم اللغة للكلمة وكان من ذلك : —

« يم : أو yem » رمزا للطفولة ؛ وكثرتها أثناء الحضانة ؛ إذ كانت الياء دلالة لذلك : كما فى المقطع — يو — فى العامية . وكان يضاف هذا المقطع إلى تسمية للأطفال أثناء قيامهم ، أو تمرينهم على الحرف ؛ كما فى إفريم . أو إبراهيم — من إبر الخياطة . أو من أُفٍّ : علامة تضجر . وقد بقى على شكله الصورى بمعنى « بَحْر » ؛ كما أضيف إلى تسمية للأبطال أثناء تمرينهم على الملاحة . وكان منه بطليموس : أى « بَطَلُ يَمٍّ » وحين توسطته الواو كان لفظ — يَوْمٍ — على دلالته الأولى — أى جماعة أو كثرة من الإخوة

الذكور تقضى مع الأم جزءًا من الزمن ؛ ثم تعود للملاحة . أو السفر — وقد اقتصر بهذا المقطع أخيرا ؛ ليكون علامة جمع فى اللغة العبرية ؛ كما فى « هَشَّامَيِمْ » أى — السماوات — وربما كان المعنى فى الأصل . أن سماء تظللنا ، ونحن على الأرض هي اليم ؛ أو هى التى تحيط بنا ونحن فى اليم . وربما كان استبدال التاء بالميم فى اللغة العربية . من أنى يأتى . أى أن السماء قد أتيناها من كل جهة ؛ لنعرف كيف تتصل بالأرض .

يس : « أو yes » . علامة تصديق . أو إجابة وكان الرمامسة يضيفونها إلى لفظ « رمس » ؛ كما فى رمسيس ؛ ليناوئوا بها دين بنى إسرائيل — أى أن عبادة القبور فى شأن عودة الروح تلقى تصديقا كثيرا من الأسر . وقد بقى هذا المقطع فى اللغة العربية على حرفيته فى النطق ؛ للحلف به ؛ كما فى قوله تعالى : « يٰس. وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ » . أو للبشارة بالإله أو الإنسان المنتظر ممن يؤثرون التسمية له فى الولادة بـ « إلْ » كما فى — إليا — أو — إلياسين — أى الذى يصدق من الجميع ؛ والذى يستطيع أن يجمع شتات الأديان .

هذا . . وحين قُدِّمَتْ الراء مع هذا المقطع أخذ معنى ريِّس . أو رئيس أو رأس . وقد اختصت الأثيوبية بالأخير ؛ كلقب من الألقاب . ويُرَاد به فى أوزوريس — مؤازرة للرأس أثناء النوم . وقد يسمي به رئيسٌ يقوم فى ليل على حراسة ، وحفظ أمن . وقد يُرَاد به الرؤيا التى يُبْنَى عليها عمل الغد ؛ وأن هذا العمل يجب أن ينفذ بأى شكل ؛ وعلى شكل واجب منوطٍ بالنفس . وقد ظهر أثره واضحا فى حب المصريين للعمل ، وتمسكهم بالواجب .

أن : أو « an » . مقطع توقيتى من الآنية ؛ إذ كان يقدر معها الزمن مع

زمن الطهى . ومنه قوله تعالى : « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ » . وقد تَنَوَّعَ إلى « آن » أو « أوان » وفى الانجليزية إلى now. أما الآنية نفسها فمأخوذة من حرف النون ، وقد بقى آخذاً شكلها فى الكتابة. وقد تنوع معها فى المعنى هذا المقطع إلى مقطع جديد هو أون « oun » وكان رمزا لتعليم الأنوثة فن الطهى . على العكس من المقطع . أور « our » . وهذا المقطع الأخير إن توسطته الميم بدل الواو يكون بمعنى إصدار الأمر من فرد واحد لا من جماعة ذكور كما مرَّ . أما إن توسطت الميم المقطع « أون ». فيكون بمعنى طهي الأمومة ، أو رمزا للزواج بها من أى فرد بعد وفاة الأب ؛ لتبقى الملكية فى نفس الأسرة ؛ كما فى « أمون » . أما إن توسطته التاء فيكون رمزاً لطهى الأخت ، أو الزواج بها ؛ حين تصل الأم إلى سن اليأس ، أو حين يُرَادُ خروج ملكية من أسرة إلى أسرة ؛ كما فى إخناتون ، وأسرة إخناتون ، وقد بقى هذا المقطع . أى . «أتون» فى اللغة العربية اسما لأخدود النار . أى «الكانون». وقد ظهر الأخير فى « فولكان » أو « بركان » وكان منه فعل الكينونة — أى هذا الغذاء ، أو هذا الشيء كان خضراً أو ... أو ... ثم صار طعاماً أو ... بعملية الإحراق أو الطهى أو . . . الخ .

أما الكاف فكانت دلالة على نُمُوٍّ وَكِبَرٍ ؛ كنتيجة لهذه التغذية . وأما الهاء فكانت دلالة على هذا النمو ؛ حينما يكون فى غيبة عن المشاهدة ، ورؤية العين ؛ لذلك كانت تطلق على الجنين أثناء تكوينه ، ومن هذين الحرفين كان المقطع « هك » في « هكسوس » ؛ وكذا لفظ « كاهن » .

هذا وقد تنتقل جماعة ومعنى من معانى ألفاظها على حرف ، وقد تنتقل

أخرى، وهذا المعنى على حرفين ؛ فى حين أن هذا المعنى فى المنشأ يكون قد أخذ تكوينه بعد هذه الفرقة من أحرف ثلاثة ؛ أو أكثر؛ فنشأت عن هذه التفريعات الجزئية ؛ التى تتفرق بها اللغات إلى حين .

فمثلا لفظ « شِبَعٍ » أو معناه كان فى الأصل دلالة على تعليم ، وسعى من أجل العيش ، وقد تكون عند قوم من الشين فقط . وهم القائمون بأمر التربية لأفراد آخرين من غير أسرهم . وقد صار منه عند آخرين شَبَّ . أى « نمى » عندما تناول الأب هذه التربية ؛ إذ شاركت الشين دلالة أبوية للباء . وعند ما ثُلِّثَ بالعين عند قوم كان دلالة لقدرة على متاجرة ، أو بيع ، أو مبادلة عين بعين ؛ إذ هذا الحرف . أى «العين » لهذه الدلالة فى الأصل . وقد وقف هذا اللفظ أخيراً عند معناه المعروف .

ولفظ : « Drum » . بمعنى طبل قد أخذ تكوينه على هذا النحو وهو فى الأصل من الضرب، وقد بنته جماعة على الدال والراء ؛ فكان لفظ « دِرَّة » وافترقت به . وحين ثُلِّثَ بالباء كان دلالة على ضربٍ ، وتأديبٍ من الأب . وحينما كان ذلك التأديب من الأم ثُلِّثَ بـ « m » ثم صار أخيرا ؛ وبعد نجاح هذا التأديب بمعنى طبلٍ وزمرٍ . وربما كان منه إضرام النار فى الأفراح لطهى ؛ الطعام . أما فى اللغة العربية فقد صار إلى ضَرْبٍ بصرف النظر عن تقارب بين دال وضاد ؛ أو بقى بمعنى « دَرْبٍ » أى طريق .

أما الطاء فكانت شكلا ، ومعنًى دلالةً لبطن . أو طعام . و إن بقيت ، أو خففت . فقوط . أو قوت ؛ ومنها قَوَدٌ . أو أَوَدٌ .

وقد كانوا يعبرون عن مجىء الأب بطعام ؛ يُطْهى فى آنية ؛ ليُعَبَّأَ فى البطن

بلفظ بطن ؛ إذ لم يكن لديهم لكل معنى لفظ . أو تعبير ؛ ثم انتقل هذا اللفظ أخيرا ؛ تسمية لهذا الجزء من الجسم . أما الباء فللأب . وأما الطاء فللطعام . وأما النون فللآنية . وحين دخلته العين دلالة على انتهاء عملية البيع ؛ وحين استعيض عن الباء بالميم جاء لفظ طعام ؛ لتتدخل الأم فيه بسياستها فى عملية الطهى .

هذ والنفى فى كل لغة مبنى على النون وحدها . أو مع حرف آخر ؛ كما فى «no .أولن» ؛ وقد تسقط النون ؛ إذا أمكن لهذا الحرف أن يخلفها فى النفى مع حرف آخر . وهو مبنى على . « هل فى الآنية شىء أم لا؟ » وقد أخذ فعليته مع الفاء فى اللغة العربية من الهيروغليفية من « منف » أو « منفيس » أى « نقص السكان بالوفاة موجود فى هذه المدينة » .

والمقطع سَمّ أو سَوْمٌ . من الألفاظ ، والمقاطع ذات الدور الأول فى تكوين اللغة ؛ وكان يعبر به عن حالة تنديد من بقية أفراد الأسرة ؛ إذا استأثر أكبر أفرادها بالأم ؛ وكان فى حالة ضعف يستوجب ذلك . أو كانوا ؛ بحيث يأخذهم صوت عذاب منه .

هذا . . وإذا اعتبرنا أحرف العلة ، أو أحرف الإمالة مما اختلفت به لغة عن لغة ؛ أو لهجة عن لهجة ، وأمكنا أن نصرف النظر عنها ؛ لإرجاع اللفظ إلى دلالة حرفية ، أو مقطعية . . . استطعنا أن نعرف تطور اللغة ، واستطعنا أن نعود بكثير من الألفاظ الإنجليزية . أو اللاتينية إلى لغة عربية .

فمثلا « Four » بمعنى أربعة من « بؤر » أو « بؤرة » أو « بئر » ؛ إذ يحفر بأربعة أضلع مستوية . وحين أراد الأوربى أن يشتق لفظا لهذا العدد ينطق به أخذه من تسمية هذا الشكل الهندسى . وربما كانت الدلالة الأولى

هٰذا العدد الباء مع الراء بأي وضع ؛ وحين أريد به التقدير في مبادلة . أو بيع بُر وغيره دخلته العين ؛ في حين أنه اختصه الفيثاغوريون بهذا الإسم .

ولفظ « Five » بمعنى خمسة من « بَيِبْ » أي « باب » وهو في الأصل من اللغة العربية ، ومأخوذ من باب الكهف ؛ إذ يماثله في الشكل . وحين أريد له عندنا لفظ ينطق به اختير له أن يكون من دلالات الأحرف التي يتكون منها لفظ خمس ؛ ومن عدد الأزواج التي يمكن أن تنتج الأم ذرية معهم قبل سن اليأس ؛ في حين أنه بقي عند آخرين في نطقه على الأصل .

ولقد كان التنويع في النطق بين كاف وقاف ؛ أو بينهما وبين الهمزة كما هو شائع في العامية من الطرق التي كانوا يكثرون بها الألفاظ ؛ أو ينتقلون بها من معنى إلى معنًى آخر ؛ ولو بغير مناسبة .

فمثلا لفظ « أنعان » في العامية بمعنى « شبعان » وقد أُخِذَ منه للعربية الصحيحة لفظ « كنعان » ؛ إذ كان عاميّ اللغة قديما أسبق إلى اللسان من صحيحها . ولفظ « OLL »هو لفظ كل ؛ وقد هاجر به الفينيقيون قبل أن يتنوَّع النطق به بالكاف ؛ وكان يُعَبَّرُ به عن تحول الجماهير ؛ وهجرتهم من شرقٍ إلى غرب . وقد بقي في اللغة العربية بهذا المعنى ؛ كفعل أمرٍ من آل يؤول . وكان يقوم مقامه المقطع « جَمْ » أو « جُمْ » وهو لا يزال في العامية بمعنى جاءوا ؛ وحينما كانت تتجمع هذه الجماهير ؛ لبيعٍ يضاف له العين ، وكان من ذلك لفظ « جمع » أو « جميع » وحينما كانت تتجمع من أجل السياسة أو الدين يضاف له « آهور » وكان من ذلك لفظ « جمهور » .

أما التنويع في النطق بين « زاي » أو « ذال » أو بينهما وبين « السين »

و « الثاء » فأمر شائع ومعروف ؛ ويمكن به إرجاع كثير من الألفاظ اللاتينية إلى حظيرة اللغة العربية ؛ كذا التنويع بين «دال » و « ضاد » أو بين « فاء » و « باء » كما مرَّ .

والهاء حينما أريد بها أن تكون دلالة على حالة غيبية تُؤَثِّرُ فى الكون أُتُّخِذَتْ حرف تعريف للأشياء التى أمكن الوصول بها إلى معرفة ؛ وقد لازمت كثيرا من الألفاظ ؛ حتى صارت ؛ كجزء من الكلمة ؛ وحين جَدَّت حروف أخرى للتعريف « كأل . أو La . أو The » تُنُوسِيت الهاء كحرف تعريف ؛ وتُنُوسِيتَ معها علمية هذه الألفاظ .

فمثلا لفظ « هامان » فى الأصل بمعنى الرجل ؛ وقد أسرع الفينيقيون حين أخذوه بهذا المعنى وهذه الأحرف قبل أن تلازمه الهاء.. وهو من الأمنية التى يرغبها الأب لبنيه ؛ أو من قوله تعالى : « أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ . أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ . » .

أما « Hand » بمعنى « يد » فقد لازمته الهاء ، وتُنُوسِيَتْ فيه ؛ وهو مأخوذ من الند . أى « المماثل » ؛ إذ أن إحدى اليدين لا تفترق فى شىء عن الأخرى فى الشكل والمماثلة .

هاتور : لفظ مكون من هذه الهاء . ثم المقطع «تو to » . وكان يرمز به لقرنى البقر . ثم الراء ، وحين انفصلت الهاء ؛ لتخلفها « أل » كحرف تعريف صار تسمية لذكورها ، ومن هذه الدلالة الإثنينية كان لفظ « توراة » أى الدور الثانى فى تكوين العقيدة بعد إبراهيم ، ومنها أيضاً « photo » بمعنى مصور ؛ إذ بعمله يوجد صورة ثانية على الورق للإنسان . وربما كانت الفاء فى المقطع

الأول باء الأب ؛ إذ يأتي الإبن دائما صورة ثانية لأبيه ؛ وربما كانت التاء أيضا لهذه الدلالة حينما كان يكثر الزواج بالأخت . ولعلها كانت الأصل .

وحين انفرطت العقيدة الإسرائيلية فى شأن يهوذا قبيل الميلاد اختصت اللغة الإنجليزية من اسمه بالدال كحرف تعريف فقط . أما البدو فقد أخذوا منه الهاء ؛ ليتم المقطع « أل » لَفْظَ جلالة له سبحانه .

وقد كان انتقال حرف « الشين » فى النطق إلى « هاء » حينما أمكن للعقل أن ينتقل من محسوس إلى معقول ؛ ليدل اللفظ بها . أو معها على روح ، أو غيبة فى ضمير ، أو حديث مضى ، أو يرجى له عودة ، أو هيئة حسنة مرجوة ؛ كما فى لفظ « أهرة » ومنه كان لفظ « آخرة » . . .

وقد كان هذا الرقى العقلى حينما أمكن للآريين أن يتخلصوا من « آشور» كإنسان ، وحينما أرادوا به قوى من الخير تسيطر على الكون ؛ لذلك انتقل هذا اللفظ معهم إلى « آهور » أو « آهور مازدا » . ثم رمزوا لذرية يتغلب عليها شر ، أو لتناسل يقصد به الوصول إلى « آشور » كإنسان بلفظ «أهرمان»

وحينما اتخذ المقطع « أل » حرف تعريف كان قد تنوع إلى « آل » بمعنى « أهل » ثم بمعنى سراب ؛ إذ كان هذا اللفظ فى الأصل بمعنى « سيرة أب كامنة فى الطفولة » ، وقد شاركه هذا الأخير . أى « سراب » فى معناه الأخير . أى « تربية للذرية ؛ ثم فناء ، وتمسك بمن فنى على غير طائل » وكان من ذلك على أى معنى « سرابيوم » على العكس من « رمسيوم » ، وكان أيضا لفظ « هُبل » عند العجز عن الوصول إلى « آشور » أو « إل » كإنسان ، أو التردد فى شأنهما ؛ إذ المعنى بعد اختزال الأحرف « هو . . . بل ننتظر

غيره » ، ومن الأخير كان لفظ . «Double» . أى التمسك بناحيتين من الأمر حتى تظهر الحقيقة . أما الدال فاسم إشارة . وأما الباء فباء الأب ؛ إذ به تقام ، وتكون الأسر . ثم صات للسببية .

وحينما بلغ اليأس من بنى إسرائيل مع « يهوذا » أو من « آشور » تسمو وسموا كثيراً من ذريتهم « بأمون » عله ذلك الإله ، أو الرئيس المنتظر ؛ ولكن بالاستغناء عن الهمزة بالعين ، فقالوا : «عمان» و « عمون» و«عمانويل» وقد تدرج ؛ ليكون تسمية لعمومة

ولقد كان وضع الألفاظ يراد به فى الأصل أن يطابق حالة اقتصادية أو اجتماعية ، أو موازنة بين شيئين فى زمن ، أو حجم ، أو فى وزن وكيل . من ذلك : —

« Minutes » بمعنى دقيقة ، وهذا مأخوذ من «مَنّ» أو « منا » وعاء صغيراً لكيل . « أوقيانوس» من « أوقية » ، « No » ... الخ.أى . « المحيط لايستصغر شأنه » .

« نوفمبر » من « No » ، « فم » ، « بر » أى لا تتوسع فى غذاء من « بُرٍّ » فى هذه الفترة من الزمن ؛ إذ المحصول على نهاية و بداية ، وربما وصلت حالة التنديد والمؤاخذة إلى الدرجة التى أوثر لها لفظ « ديسمبر » تسمية للفترة التالية من الزمن ، وربما كان تنديدا من نوع آخر ، وللذين يتناولون غذاءهم فى هذه الفترة من الأذرة ؛ لكثرتها إذ ذاك ؛ ولعلهم كانوا يدافعون عن أنفسهم حينما سموا الفترة السابقة لهاتين بـ « أكتوبر » أى « أخت بُرٍّ » ؛ وربما اقتصر البعض أن يكون البرُّ غذاء للضيوف فقط ؛ كما هو شائع فى الريف . .

وقد كان من ذلك لفظ « برمودة » من « بر » ، « مَوَدَّة » . وربما كان من الأخير لفظ « موضة » أى حديث . وربما كان منهما « Moudern » أو « Moder » .

« ودقلديانوس » : من « دقّ » ، « اليد » أى « باليد » ، « يا » ومن الأخيرين كان لفظ « ليديا » إسم مقاطعة لشعب إسرائيلى خلف الحثيين على آسيا الصغرى . وبما كانت تؤخذ من موانئه حمائل البر الواردة من مصر لتوزع فى روما . ثم « no » والمعنى الجلى « لا سَبَلَ يدق لليديا ؛ بل يدق لأهله » . ومن ذلك كانت التسمية عندنا بـ « دقهلية » ، « دقادوس » .

« دَيْنٌ » : من « دنّ » اسم صاحب مصر وصديق يوسف . وقدتوسطته الياء ليتخذ قديما تسمية لمقدار من الوزن ؛ ثم سميت به حقوق مستحقة . وحين استعمل الكىّ بالنار ؛ لتأديتها كان منه «دينار» . أما الدرهم فمن . دِرّة » ، « همٌّ » أو « غمّ » أى الدرّة غم . أو إرغام ؛ لأداء الحقوق . ثم صار اسما لهذا القدر من النقود ؛ ويعرف فى اليونانية بلفظ « دِرَاخمة » .

* * *

من هذا نرى أنهم كانوا يسيرون فى بناء اللغة على دلالات حرفية لا تقف عند باء لأب . أو ميم لأم ، وأنهم كانوا يتدرجون فى معانيهم من كلّى إلى جزئى ؛ وكثيرا ما كان يصل اللفظ ، أو التعبير مع هذه الطريقة إلى تضخم بالحروف ؛ وعدم انسجام فى النطق .

وحينما هاجر الفينيقيون إلى الشمال ؛ وانقطعت بهم العودة كانوا قد أخذوا معهم الكثير من هذه التراكيب ، وبنوا عليه الأصل اللاتينى ؛ الذى تفرعت عنه اللغات الأوربية فيما بعد ؛ لذلك غلب على معظمها السماع ، وامتلأت

ألفاظها بالأحرف ، والمقاطع المبتورة فى معنى . أو نطق . وحينما قام النبط بتحليل الألفاظ ؛ لتطابق تجزيئا فى المعنى كان الفينيقيون بعيدين عن هذا التجديد .

وحينما أوثر التعبير بدلالات مقطعية ؛ كنتيجة لهذا النهوض شاعت التسمية بالإضافة ، والتركيب المزجى ، والمثل السائر ؛ كما فى « كيليو بطره » أي « كيل كثير ، و بطر نعمة من الرعية» . ثم « كيليو منيس[1] » أى « قد صُودق على العطايا ، أو الدخل بكيل كبير وصغير » . أى «من وكيلة» ، وقد سمى به رئيس مالية مصر فى عهد الإغريق . ثم « كرا كلا » اسماً لأحد أباطرة الرومان . أى «حتى كَرْىُ الترع فكلا» وكان ذلك قد أهمل فى عهده ؛ حتى ساء المحصول الزراعى ؛ وكانوا يتخذون اسمه للتنكيت به ، والتشهير بضعفه فى مجتمعاتهم . وأما «أوردن» و «أوردشير» فردوددينية ، وتعاليم خيِّرة ، أو بين خير وشر . وأما « كايلة ودمنة » عنوانا . أو تسمية فردية . فدوامنا كدوام ليلة وفناؤنا كفناء دمنة ؛ وهو تعبير يطابق نظريات الهنود فى معنى الحياة ؛ كما فى قوله تعالى : « إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ ، وَنَحْيَا ، وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ » كما يتفق مع عقليتهم فى تحديد زمنى . أو عددى فى مثل سبع ، أو شهربا ، أو شهرزاد .

هذا ولقد استطاعت اللغة العربية أن ترقى بفضل الأنباط ؛ وتكوّن لها ثروة فى اللفظ ، وأجرومية فى التعبير بفصل كثير من الأحرف ، والمقاطع ؛ لتكون أدوات استفهام . أو نفى . أو أسماء إشارة ... الخ . أو لترفق بالألفاظ فى حالات مخصوصة ؛ كنقلها من إفراد إلى جمع مع الواو فقط . أو الواو والنون .. . وكما فى تثنية أو إلحاق بضمير . أما لاتينية ، أو انجليزية ، أو عبرية ، فقد بقيت

(١) المقطع « يس » فى كيليو منيس يضاف كثيرا إلى الأعلام الأجنبية ومعناه فى الأصل — كثير من الأسر الكبيرة ؛ والتى يحكمها أفراد ذوو شأن تؤيد الملك ؛ وتناصره .

ألفاظها مع هذه الأحرف والمقاطع دون أن يعرف لها أساس ترد إليه [1].

وحينما سيطر الإغريق على الحياة العلميــة فى الشرق كثر استعمال حرف « الطاء » . وظهر كثيراً فى مثل « قيراط » ، و « أبيقراط » . وقد امتازت به لغة ، أو نهضة طبية عرفت لذلك العهد ؛ وكانت تنتجع للصوفية ، أو المتمسكين بزهد ، وتكشف طريقة أخرى فى الحياة ؛ ليصح الجسم بالتغذية وينمو على بسطة فى العيش . وقد انتجت هــذه النهضة دولة حملت لواء الطب الغذائى حول دجلة ، والفرات بعــد تفرق الإغريق ؛ ودام لها الأمر أكثر من أربعمائة سنة ؛ وقد عرفت بالدولة البارادية ، أو البارانية ، أو البرطية وَعُرِفَ ملوكها بأسماء تقرب لغةً من قطع الخبز ، وهشم الثريد ؛ وربما كانوا فى ذلك على عهد مع الهاشمية فى إكرام ضيف أو إغاثة جوعان .

---

(١) هذا الموضوع اللغوى أريد به الإرشاد فقط إلى كيفية الربط بين اللغات على نحو ما بينت . وإليك زيادة على ما سبق توضيح لبعض كلمات وتعابير : فمثلا : —

« إنجيل » : أى الآن قد جاء إيل أو قرب أن ينزل على الإنسانية بآياته . وحين أضيف إليه المقطع « يس أو يش أو ير » كانت كلمة إنجليز . . . . الخ .

« كومبليت » : أى الكم والعدد أصبح بليت أو مع تمن ؛ إذا أريد له زيادة . وهى من « كم » ، « الباء » ، « ليت » .

« صالون » : وهى من « سولون » إسم المشرع الإغريق ؛ إذ كان قد اكتسب لونا جديدا لبشرته من الغذاء المصرى بعد أن كان شاحب الوجه من تصوف درج عليه بعض الإغريق . والمعنى : انظر . أو اطلب لنفسك لونا آخر بالحلاقة . أو الغذاء .

« نوت » فى الإنجليزية بمعنى مذكرة : مه عندنا « نوته » والتسمية مأخوذة من النوتى « ربان السفينة » وهي من ألفاظ الفينيقيين ؛ إذ كانوا يدونون معارفهم التى يأخــذونها من الشرق فى مثــل هذه المذكرات . كذا لفظ « ليصا » بمعنى حيرة من لاص يلوص . وهو كذلك فى الإنجليزية ولــكن مع تاء التأنيث المفتوحة كما فى « جوزويت » « جون » بمعنى إصابة الهدف مأخوذ من الجون « الفرس الأسود » . والمناسبة ظاهرة « كورب » فى الفرنسية بمعنى انعطاف أو انحناء مأخوذ من « قرب يقرب » ؛ إذ السائر بعد شوطه فى المسير ينعطف عند ما يقرب من منزله أو حانوته . . . . الخ .

وقد كان هؤلاء يعدون كثيرا من مدن الفرات بغلال المصريين ؛ حتى غلب على البعض تسمية مصرية . وقد عرفت بذلك مقاطعة سميت « أدمينا » أى « أدم مينا » . ثم عرفت بعد . . . بالرّها ، ونصيبين . أى « الرخاء ونصيب ونصيب » ومن « مينا » كان « ميناء » أو « مان يمون » ومن بارانية ، كان فى العامية « بَرْنِيَة » . « لِوِعَاء من الخزف » وفى الأجنبية « بار » ثم « بورت » .

وقد عرفت لذاك لغة هيراطيقية بدل هيروغليفية ؛ وكلا التسميتين تقرب من عربية أو عامية . أى « الخير فى غلاف ، أو طاقية » ؛ إذ كانوا يحفظون مستنداتهم العلمية فى لفائف العمائم ، ومنها كانت الطاقة للقدرة « وطاقة من دبلان » ، ثم أنطاكية بتخفيف . أو على الأصل . وأما المقطع « أن » فللوقت . هذا وربما أريد بذلك حفظ المعرفة ، و بقايا العلوم بعد عبث الآشوريين بالتدوين ، والذى استمر فى نفسيات البعض ؛ حتى هدمت به مكتبة الاسكندرية ذلك الحادث الذى اتهم به عمر على غير قصد .

رابطة في العقيدة

لقد وضحنا كيف كان بناء . أو تكوين للعقيدة . ووقفنا فيه عند « أمون » أو « آشور » أو « إيل » ، وقد بقيت هذه العقائد ، أو هذه النواحي في العقيدة على صلة . تمد هذه تلك بفكرة . أو رأى ، وتوازن أخرى بين ناحيتين في عرف ديني ، أو نظام عمراني ؛ حتى آتت كل عقيدة ثمرتها في دين ، أو معرفة ، أو حضارة .

إن الله سبحانه ما كان يقصد من عبادة حول هذه العقائد إلا تمسكا بالماضي ، أوالأرقى منه ؛ لِيُبْنى عليه جديد ، و إنه كثيرا ما كان يتركها للرؤساء وزعماء القبائل ؛ ليكونوا بها شخصياتهم ، ويبنوا عليها رياساتهم ، ولكن ما لبث أن اعتقد المصريون ، أو عامتهم ألوهية لرئيس ، أو في رئيس ، لنجاح سحرٍ على يده ، أو يد أعوانه ، وسرعان ما تعددت آلهتهم ، أو رؤساؤهم ؛ حتى أصبح للجنازة إله أو رئيس ، وحتى أصبح الأمر في حاجة إلى تعديل ؛ يقفوا به في عبادتهم عند أمون .

إنه سبحانه ما كان يقصد من هذه العبادة إلا توحيدا في الرئاسة لكل أمة ؛ حتى يُستطاع عند رقيها الفكرى نقلها من فردية في الرئاسة إلى فردية أو توحيد في السماء ، ولكن سرعان ما انتقل المصريون من « بتاح » إلى « أمون » أو « رَعْ » أو « أوزوريس » ، أو جمعوا في عبادتهم بين ثلاثة أو اثنين .

لقد كان كفى للمصريين أن يقفوا في عبادتهم عند أمون ، ولو أنهم

وقفوا عنده لسلمت لهم حضارتهم، واستطاعوا معه أن يبنوها على شيء من الفلسفة والعلوم العقلية .

إنه سبحانه كان يخشى أن تُبنى عقلياتهم على خطأ في فهم معنى رئاسةٍ في سياسة . أو دين ؛ حتى لا تتطاحن عقلية بعقلية ، أو تثور جماعة ضد جماعة ، وحتى لا تتكون بذور سيئة في الدين أو في النفوس ، يصعب على الأنبياء اجتثاثها في عصر انتقاليّ للعبادة ، وحتى لا تؤدى بهم إلى إشراك ، أو تجهم لسياسة من السماء ؛ لهذا ، أو غير هذا وقع المصريون تحت ضغط من الهكسوس ، وغير الهكسوس ؛ حتى صدق عليهم قوله تعالى : « وَلَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ ؛ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ » .

لقد بقي الأمر على فوضى في العبادة عند المصريين ؛ حتى بعد الهكسوس وبين صَخَبِ الحياة ، وفي تلك الآونة من التاريخ . أى « في عهد تحتمس الثالث » تنبهوا إلى ما كانوا عليه من خطأ ، أو أرادوا أن يأخذوا شيئا عن آشور ؛ فنشأت بينهم فكرة ميلادٍ ، وتطلع لمجد من بنوّة ، ولكنهم ما أرادوه من مستقبلٍ ؛ كما أراده آشور ، و إنما قصروها على الحاضر فقط ؛ ولأمون . دون غيره من معبودات ؛ لتستند عليه وحده نظريتهم في عودة الروح وقد نسجوا ذلك في قصة سموها « الميلاد السماوى » وكان صاحب هذا الميلاد تحتمس الثالث . وقد انتقل إليهم هذا التقليد الدينى مع الفينيقيين عن طريق التجارة ، وثبتت دعائمه في عهد الملكة حتشبثوت[(١)] .

حينئذ استطاع أمون أن يقاسم آشور غنيمة في سياسة أو عقيدة ، واستطاع

(١) « حتشبثوت » من هيت ، شب ، وثواء أخت ؛ إذ كانت « الحاء » تقوم مقام الهاء كما في « حاتور » و « حرحور » .

بعض المصريين أن يعرفوا شيئا عن التوحيد فى عهد إخناتون .

ولقد جاء موسى على قدرٍ ، وأراد بالقوم نقلة عاجلة ، أو كاملة إلى معبود واحد . هو الله ؛ كما أراد أن ينقل العبادة له سبحانه من إنسان . أو رئيس . عند ما أريد عليها من السماء ، وعند ما خوطب فى هذا الشأن بقوله تعالى : « فَلَمَّا آتَاهَا نُودِيَ . يَامُوسَى . إِنِّي أَنَا رَبُّكَ . فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ . إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى . وَأَنَا اخْتَرْتُكَ . فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى . إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا . فَاعْبُدْنِي ، وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي . إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ . أَكَادُ أُخْفِيهَا ؛ لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى » .

ولقد كُتِبَ له فى ألواحه ، ومدوناته كل شىء عن هذه المعبودات ، ولكنه حينما كلمه ربه بصوت فى كلمات ، وأحرفٍ فهم . أو فهم بنو إسرائيل معه أنه إنسان . أو شبيه بإنسان ، وتحت تأثيرٍ من قومه قال : « رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ . قَالَ : لَنْ تَرَانِي ، وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ . فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي . فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا . وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا » .

لقد كان ذلك عقابا لموسى وأخيه ، وكان فيه ما يكفى أن يرتدع به بنو إسرائيل عن فكرة التشبيه ، ولكنهم مالبثوا بعدهما أن عادوا إلى نصوص إبراهيم فى شأن آشور ، وما لبثوا أن أرادوا يهوا . أو يهوذا ذلك الإنسان ، أو المعبود المنتظر الذى يبشر به إبراهيم .

حينئذ دَبَّ خُلْفٌ بين علماء بنى إسرائيل . انقسمت به مملكتهم إلى واحدة فى الشمال « شام » وأخرى فى الجنوب « فلسطين »

ولقد كان نجاح سحر من شيطان فى الشكل الذى اعتبر به فتناً فى الدين

مما عاد به القوم إلى فكرة تشبيه الله بإنسان ، ومما جعل العامة يتمسكون به على أنه إنسان ، وإنهم ما وقفوا فى خلفهم عند هذا . بل قالوا ، أو قال البعض إن آشور ليس بمولود ؛ بل يجب أن يكون زوجا ، أو بعلا يدعى لزوجة ؛ فيسدل على أسرتها شيئا من نعيم الحياة ، وأن الحياة ليست زهداً . أو تقشفا تنادى به مملكة الجنوب .

ولقد استطاعت مملكة الجنوب أن تنال من مملكة الشمال ؛ لأنها تخالف إبراهيم ، وأن إبراهيم ما أراد بآشور أن يكون زوجا مزعوماً تنادى به هذه المملكة . قال تعالى : « أَتَدْعُونَ بَعْلاً ؛ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ . اللهَ رَبَّكُمْ . وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ » .

وحين أخذها الضعف تفرقوا مع الحثيين ، أو آثروا البقاء على دَخَلٍ وموار بةٍ فى العقيدة ، والسياسة بين مصر وآشور . ولما اشتد النزاع حول العقائد وعاق بعض الساسة وازع دينى عن التوسع فى ملكية تنازل كلٌّ لأخيه عن شيء من اعترافه الدينى ؛ ليعيش فى أمن ؛ أو يعيش على حساب آخرين . ولقد ساد الجميع تسامح دينى . ولكنه كان ريثما يُتِمُّ نبِيٌّ رسالته بين بنى إسرائيل ؛ ثم يعود الأمر إلى أشد مما كان عليه .

هذا وقد أعقب زواج ؛ أو رغبة فى زواج ؛ يصلوا به إلى آشور ، أو إله منتظر نسلا ؛ أو زيادة فى الذرية غلبت عليها الأنوثة ؛ مما جعل أهل الشمال يتمسكون بالدعاء أولا لبعل . وما زالوا ينحدرون وراء الحثيين فى طلب العيش يحملون هذه المبادىء الزوجية ؛ التى صبغوا بها الحياة الأوربية فى كل عصر ؛ والتى جعلتهم جميعا بَعْدُ . . . يتحللون من كل نظام دينى فى مصاهرة أو اختلاط جنسى .

أما فى الجنوب فقـد استطاع القوم أن يوجدوا نظاماً سموه رهبانية ؛ وأعدوا له نظما ، وتعاليم أشبه بنظم المدارس ، وتعاليمها . ولـكنه ماصح ؛ ولن يصح ؛ كنظامٍ دائم فى الدين ؛ إذ هو تعطيل ، أو توقيف لسير الحياة ، وينتهى حتما بفناء النوع . أو الجنس . ولو أنه اتبـع ؛ كنظام توقيتى ؛ ربما يتم إصلاح أو تجديد لأجدى على الإنسانية ؛ ولأمكنهم أن يطابقوا به بين حياة وحياة فى أزمة زواج ، أو عند انتشار فساد .

قال تعالى : « وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ . وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ . وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً ، وَرَحْمَةً ، وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا . مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ ؛ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا . فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ » .

ولقد كان إحياء الموتى فى عزير ، وغير عزير ، على يد سحرة أو علماء مما جعل القوم يتمسكون بمبدإ المصريين فى عودة الروح . وعنـد ما ظهر المسيح قالوا : إن واحدا منهما هو آشور . أو اليشع . أو يسوع . أو إلياسين .

قال تعالى : « وَقَالَتِ الْيَهُودُ : عُزَيْرٌ بْنُ اللهِ . وَقَالَتِ النَّصَارَى : الْمَسِيحُ بْنُ اللهِ . ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ؛ يُضَاهِئُونَ — يطابقون — بِهِ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ . قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ . اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ ، وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ ، وَالْمَسِيحَ بْنَ مَرْيَمَ ؛ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلٰهاً وَاحِداً . لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » .

ولقد قالوا : إن واحداً منهما هو الذى سيغيرأوضاع كل دين ؛ ليتبع بسعة

صدر من الجميع . ولعل ذلك كان بشارة أيضا بمحمد [١] ولكنهم قد أنكروها ، وأنكروا معها جزءاً من التوراة ، ووقفوا بها عند عزير والمسيح .

قال تعالى : « وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ؛ إِذْ قَالُوا : مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَىْءٍ . قُلْ : مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَى . نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ . يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ . يُبْدُونَهَا ؛ وَيُخْفُونَ كَثِيراً . »

وعندما فقدوا المسيح تلمسوا له عودة على نظام أمون ؛ مما جعل المسيحية من بين كهنته خيرعون ، وحسن ضيافة لانصار المسيح . وما زالوا يطوون إليهم القفار ؛ حتى سُمُّوا « إيجبت » « Egypt » [٢] . أو « قبط » . الأول من جاب يجوب . والثانى من « قَابَ قَوسَيْنِ أَوْ أَدْنَى » . تهويناً للمسافة .

هذا ما أعقبته فكرة آشور « آخور » بين العامة . عند المصريين ، وبنى إسرائيل . أما الخاصة فقد كانوا ينتظرون تأويله بين نَبِىٍّ و نَبِىٍّ ؛ استنادا على ما تحمله كل رسالة من تبشير بدينٍ ، أو رأيٍ جديد . ولكنهم كانوا كلما أنتجت لهم عقلية « ثروة » فى تفكير . أو تكوين ألفاظ . أو انتقال بها من معنىً إلى معنىً جديدٍ تناولوه بتخطيء . أو تحريف إبقاءً على قديم .

قال تعالى : « فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ ؛ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً . يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ . وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ . وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ ؛ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ ؛ فَاعْفُ عَنْهُمْ ، وَاصْفَحْ . إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » .

---

(١) أقصد بذلك فكرة عموم الرسالة فقط .

(٢) لفظ « قبط » كلفظ « جوزويت » مما بقيت فيه التاء فى الأصل اللاتينى ؛ فى حين أنها انفصلت فى اللغة العربية ؛ لتكون تاء فاعل أو تاء تأنيث . وربما تكون التسمية قد تنوعت بالقاف من « آب » .

هذا ... وإذا رجعنا إلى آشور مع الآشوريين وحدهم ؛ أو مع الآريين. نجدهم قد أرادوا به فكرة خيالية عامة قال بها زرادشت ؛ وقسم لها الحياة. بين خير وشر ؛ ووقف بجانب خَيْرٍ ؛ ليطارد به دشت الحياة فى نسل لا يستحق الذكر ، أو تعلق بأنوثة لا يأتى بخير ؛ وليبتعد بألوهية آشور عن التمسك به. فى ولادة ، ووضع كلا الناحيتين فى تسمية من لفظ آشور بعد الاستغناء عن الشين بهاء . فسمى خيرا بـ « آهورمازدا » . أى « إله معنوى . أو فى غيبة يزيد ، وفى نمو مع نمو العقل » . وسمى شرا بـ « أهرمان » . أى « سوء وقبح لفكرة آشور ؛ إذا كان يأتى عن تعلق امرأة برجل » .

هذا . . . وما زالت فكرة خير تنمو ؛ حتى تركزت عليها الحياة العلمية فى كل قطر ؛ وحتى نمى فى ظلها كثير من الملوك ، والقادة . أمثال شالمنزار وسنخاريب .

أما فى بطن الجزيرة فقد وقف العرب ، واليمنيون بعد صالح عند القدر الأول من التوحيد الملموس من « إل » ؛ كما وقفوا به عند سبب واحد. أو سببين من السماء ؛ وإنه ما زال يحتاج إلى رقى فى العقل ؛ ليأخذ أفقاً أوسع فى تفكير ؛ أو نصيبا أكبر فى لفظ ؛ أو تعبير . وإنهم ما زالوا يختلطون بالحياة على ضفاف الأنهار ؛ ويعودون ومعهم منها نصيب ؛ حتى كان للمانوية مناة ولتعجيز ، أو ضياع أمل فى مصاهرة ، أو إقامة ملكية ؛ أو نجاح فيهما . « اللَّاتَ » و « الْعُزَّى » ؛ وحتى كان لبقية ثمود من بينها « صَمُودَا » . وإن ذلك كله كان يؤذن بدين جديد . يستخلص فكرة صحيحة . أو عامة لمعنى إله .

قال تعالى : « أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ ، والْعُزَّى ، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى . أَلَكُمُ الذَّكَرُ. وَلَهُ الأُنْثَى . تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى . إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ ، وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ . إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ ، وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ . وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى . أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى . فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَى » .

وعندما ظهر الإسلام ما كان للبعض أن يقف عند آشور . أو يهوذا . أو أمون . أو يريد بهم . آهور ، وعزيرا ، والمسيح بعد أن صُودِقَتْ فكرة محمدٍ فى شانه سبحانه بتعجيز ،وتهديد من السماء.. إن لم يتخلّوا عنه ؛ كإنسان .

قال تعالى : « وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ . قُلْ : إِي . وَرَبِّي . إِنَّهُ لَحَقٌّ ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ » . « لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ ، وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ . وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » . « لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ . وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ . وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » .

وحينما عاد آخرون إلى نصوص إبراهيم استطاع قرآن . أو كتاب سماوى أن يبرىء إبراهيم .

قال تعالى : « فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ — أى فى شأنه سبحانه — مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ : تَعَالَوْا. نَدْعُ أَبْنَاءَنَا ، وَأَبْنَاءَكُمْ ، وَنِسَاءَنَا،وَنِسَاءَكُمْ ، وَأَنْفُسَنَا ، وَأَنْفُسَكُمْ . ثُمَّ نَبْتَهِلْ ؛ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ . إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ، وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

فَإِنْ تَوَلَّوْا . فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ . قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا ، وَبَيْنَكُمْ . أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ ، وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً . وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا : اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ ، وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ ، أَفَلاَ تَعْقِلُونَ . هَا أَنْتُمْ هَؤُلاَءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ — أى فيما وقع تحت مشاهدتكم — فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ — أى فيما مضى من قصص — وَاللهُ يَعْلَمُ ، وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ . مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا ، وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً ، وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ . وَهَذَا النَّبِيُّ ؛ وَالَّذِينَ آمَنُوا . وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ » .

هذا ... وإن تدرجا فى رقى عقلى ؛ أو نهوض فكرى يستطيع أن يبرىء إبراهيم ، أو يحتمل عن أنصاره، وخلفائه مسئولية ؛ إذا عجزت اللغة أن تكون أداة تفاهم بين الجميع .

هذا هو شأن الثلاثة الآلهة الذين سيطروا على العقلية قبيل الإسلام . أما أمون فقد ضاع فى قرابة بين كهنته وأنصار المسيح . وأما آهور فقد سيطر على المسيحية . أولها فى ربوع أوربا فى فكرة خير وشر . أو ما بين عقل ودين .

وعندما أخذت تعاليم الإسلام فى الانتشار أخذ الأوربيون يعدلون مواقفهم فى الدين ، ويتدرجون فى تنازلهم عن ألوهية . أو بنوة لألوهية للمسيح . ما يهودية . أو إسرائيلية فما كان لها بعد هذا أن تقف عند يهوذا . أو عزير . ولقد لحق كل نبى بالرفيق الأعلى ؛ وفى الجراب بقية . وإن نصاً فى شريعة

إبراهيم لآشور له مثيل فى الإسلام . وإن آشور؛ كإنسان يجمع الناس على دين واحد هو ذلك الداعى الذى يبشر به القرآن . قال تعالى : « يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ ؛ لاَ عِوَجَ لَهُ . وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمٰنِ ، فَلاَ تَسْمَعُ إلاَّ هَمْساً » .

إن علوما ، ونظم تربيةٍ عندبعث محمدٍ ، وبعده لم تستطع أن تخلق آشور وإن آشور لن يكون إلا بعد أن تستقصى الإنسانية كل معرفة ؛ وحتى لا يكون هنـاك علم يطويه غيب . وإنه ؛ كإنسان غير مسئول لن يكون إلا ؛ كنتيجة لنجاح تجاربها فى التربية ، والسياسة على نظام المسئولية بشكل عام .

قد يبدو عسيرا على الإنسان أن يخلق من نفسه رجلا غير مسئول . أو بمعنى آخر غير معاقب . أو ملام على شىء رآه أن يترك ! أو يؤجل إلى حين ! ولـكنه يستطيعه ؛ إذا حدد لنفسه واجبا ، وفهمه ؛ وقام به على النحو الذى سيطلب منه ؛ بحيث يستطيع أن يفهم سائله ، ويقدره ، وبحيث يستطيع أن يقدم عذرا مقبولا فيما تركه ، ويرتبط بواجبه .

هذا فيما بين الإنسان وأخيه الإنسان . أو فيما بينه وبين رئيس لا يعلوه بكثير . أما فيما بينـه وبين ربه . أو فيما بين أمير ووزير ، فقد تعثرت فيه السياسة بعد محمدٍ ، وما زالت تتخبط فيه حتى اليوم ، وإنه ؛ كنهج أو إرشاد إلهى ما نجح فيه إلا أمة[١] واحدة ، ولعل ذلك النجاح كان ؛ كنتيجة لتجارب الإنسانية عامة فى شئون السياسة .

---

(١) هذه الأمة هم الانجليز . وهذا النجاح ؛ وإن تحقق مع خطأ فى مبدأ الفصل التام بين السلطات الثلاث فإنما يرجع إلى أنهم كانوا يعتمدون على الثقة بأنفسهم أكثر من اعتمادهم على مراسيم ، وقوانين . هذا إلى أنها أمة أمانيها محققة .

ولقد عجز المسلمون عن تحديد الواجب . أو تحديد الموقف بعد مقتل عثمان ؛ فخرج البعض يطالب بدم عثمان ، وماذا تجدى عليهم مطالبة بدم عثمان . وهم على أبواب جهاد عام .

إننا لا نرى لوماً على علىّ بن أبى طالب حين آثر على ذلك جهادا فى سبيل الله ؛ كما لا نرى لوماً على السياسة من بعده ؛ إذا داهن فيها معاوية ما دام قد أدى بها خدمة لصالح الإسلام .

إننا فى الواقع لا نستطيع أن نخلق من أنفسنا رجالا مسئولين . أو غير مسئولين إلا إذا حدد كل منا واجبه ؛ كمبدإ يقف عنده ، ويكوّن به شخصيته ، و إننا لا نستطيع ذلك. وسياسة الأمة تسير على نمط تتلاشى فيه المسئولية .

إننا إما أن نثق بأنفسنا كساسة ، وإما أن نثق بأنفسنا كنوابٍ عن الأمة ، وجمع بين الثقتين لحزب واحد لا يؤيده برهان ؛ بل يسير على نقيض ما ينادى به علماء التربية من وجوب الفصل بين قوى الأمة فى سلطاتها الثلاث

هذا خطؤنا فى السياسة . خطأ لأنه لا يدوم به الحكم لكل وزارة إلا بضعة أشهر ، وخطأ لأنه تضيع به هيبة . أو استقرار نرجوه لنيابة الأمة .

إن المستقبل سيتطلب من كل هيئة ، وكل جماعة تحديدا للموقف ، وتحديدا للواجب ، وثقة بالنفس ؛ لتعتمد عليها أكثر ما تعتمد على مراسيم وقوانين . ألا و إن دفائن الماضى ستنثر ، وسينال كل فريق من فريق ، وبالقدر الذى اقترفت به الآثام ، و إن آشور . أو ذلك الداعى سيكون غير مسئول .

هذا ... و إن آشور لن يبعث إلا من الأرض ، ومن بين الخلاصة الصالحة والأخيرة من الخلق . أما إرشاده فسيكون عن إرسال من العقل يهتدى به من

على الأرض ، أو على ظهور الكواكب . قال تعالى : « ومِنْ آياتِهِ أنْ تقُومَ السَّماءُ والْأَرْضُ بِأَمْرِهِ — أى يُقوِّم ، ويعدل ما فيهما من مخلوقات — ، ثمَّ إذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ » .

و بعد .. فلعله يكون هناك داع آخر ينادى بخبث الإنسانية ، وما كانت عليه من منكر ؛ ليهيئ له طريقا إلى الفناء عن طريق التنديد والتبكيت ، ووسط هذا يستطيع الإنسان أن يكون له شخصية[1] أو لا يستطيع . قال تعالى : «فتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِي إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ : خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ . يَخْرُجُونَ مِنَ الأجْدَاثِ[2] كأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ . مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِي يَقُولُ الْكافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ» .

---

(١) عند نجاح الاستطاعة يتحقق قوله تعالى : « يمحو الله ما يشاء ويثبت ، وعنده أم الكتاب » .

(٢) خروج الناس من الأجداث عند البعث لا يراد به الخروج من قبور الدنيا ؛ بل من مواطن الإحياء على ظهور الكواكب .

نشأة الأدب ومبادئ الاجتماع (١)

لقد فاتنا أن نذكر شيئا عن الأثر العلمي الذى أحدثته قبائل « السكاش شو » أو نتناوله من حيث أنه بداية أفكار ومعانى دارت حولها الأشعار ، أو كيف خطا بالعقلية إلى وجهة أدبية ، أو كيف خطا بالحياة من لهو ومجون إلى جدٍّ وبعد نظر .

لقد كان الإنسان الأول كثيراً ما تغلبه شهواته ، وكثيرا ما كان يقع بسببها فى حيرة من أمره ، وكثيرا ما كان ينتهى به إسرافه إلى فقر وعيلة . أو كسل وإثرة أو إيثار زهدٍ وتقشف على عمل وسعى وراء العيش . وكان عسيرا عليه . أو على ناحية مسئولة عنه أن تقيله من عثرته . أو تهيئ له جوًّا علمياً تتعادل به رغائبه ؛ حتى تتزن عقليته بين خير وشر . أو غنى وفقر . أو جدٍّ ولهو ، أو كسل وحب لسعي . أو تكون على استعداد دائما لأن تساير الحياة فى جانبها الأرقى ، وحالتها التى تتمشى مع كل عصر . .

ولقد كان انهيار الأسر ، وتبلور القوميات ؛ كنتيجة لهذا العجز مما ورّث النفس كثيرا من المعانى الروحية التى نمت عليها العقلية ؛ حتى كونت لها مذهباً فى شعر .أو أدب . أو سياسة . أو اجتماع .

وعند ماامتزجت الحياة بمذاهب هذه القبائل كانت على حلفٍ فى ذلك مع بنوّة إسماعيل ، وكانوا جميعا يريدونها أُخُوَّة ، ومقاسمة بين الجميع .

---

(١) لقد وضحت شيئا عن هذه المبادىء ، وأريد بها هنا ناحيتها العلمية أو الروحية التى كانت مادة للغة ، ومادة للأدب .

ولقد كان العرب أكثر ما يتجهون إلى ضفاف النيل . وكان كثيرا ما ينتقصهم فرعون ؛ ويردهم فى خيبة أمل ، أو منه على عودة . وكانوا كلما عادوا . عادوا ومعهم نصيب فكرى ، أو أدبى ، أو روحى يعيشون عليه ؛ ريثما يأتى وقت مناسب ، أو فرصة تسمح بعودة . وما زال هذا ديدنهم ؛ حتى غلب عليهم اسم عاد . أو لفظ « عاد » ؛ وحتى غلبت على ناحيتهم الأدبية مسحة غضبٍ جعلتهم يجولون بالأدب كثيرا فى مناجذة عدو ، أو مناشدة حماسة ، أو تلبية لنجدة ، أو كرم وحسن ضيافة .

أما فى الشمال ، أو فى أحضان هذه القبائل ؛ فقد غلبت عليه ناحية قصصية لحيوان ، أو أسطورية لما مضى من حياة الإنسان . وكان ذلك كثيرا ما يغيظ الآشوريين ؛ حتى دفعهم إلى اغتصاب الحياة ، أو الحضارة على ضفاف الفرات ؛ لينشروا فيها مبادئهم فى السياسة ، وأحوال الاجتماع ؛ وليعفوا بها على حياة تؤثر شقاء من أجل نصيب من السحر . ولعل ذلك كان إيذاناً ؛ لإدالة شعر ، وأدب من سحر .

قال تعالى : « وقَالُوا رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنا — أى شق علينا ؛ ليعود إلينا مافقدناه من سحر — وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ . فَجَعَلْنَاهُمْ أَحادِيثَ . وَمَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ » .

ولعل جنة فرعون أثرت فى نفوسهم ؛ فأرادوها على غير النهج الصالح للأنبياء ، وقبل أن تقوم نظريات المبادئ ، والعلوم على أساس . ولعل الله أراد بهم شقاء من نوع آخر ؛ لتنمو فى ظله أقصوصة تبكى الأطلال والديار . وأخرى تنشد مجداً على تجارب اختزلت ؛ وبان ما كان فيها من غث للعيان . ولعل ذلك كان دعوة لهم ؛ لتحقيق ما وصلوا إليه من علوم .

قال تعالى : « وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ . فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا . إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا ، بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ » .

ولقد كان انقسام بنى إسرائيل فى هذه المبادئ أو حول المعانى الأولى لأدبٍ وشعر مما كان يدفع إلى هجرات بدوية إلى فلسطين من ذريات موسى ؛ وممن كان قد استودعهم فى « مَدْيَنَ » موطن أُمومتهم من شعيب

ولقد كان هؤلاء البدو على جانب عظيم من الزهد ؛ وراثة عن جدودهم أو رعاية لمبادئ إبراهيم ، وكان كثيراً ما تميل بهم هذه المبادئ إلى رحمة ... أو تسامح ... أو رعاية لجار ... وغيرها من المعانى التى كانت تواتى اللغة بمادة للخطابة والتأثير . ولعلهم جميعا حينذاك ، أو قبيل رسالة داود وسليمان وفى القرن العاشر قبل الميلاد قد عرفوا اللغة ، ولانت على ألسنتهم معانيها ، وفهموا مالها من أثر فى إقامة حجة ، أو توضيح برهان .

إن ذلك فى الواقع كان بداية صالحة تبشر بنهوض الأدب ؛ ليخلف سحرا ، أو عرافة ... الخ . فى التأثير على العامة لصالح فى دين ، أو فى سياسة . وحين شغل السحر جانباً من رسالة سليمان كانت النفوس قد ملته ، وأراد سليمان أن ينتهى فيه إلى رأى . قال تعالى : « وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ . وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ . وَلَـكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا . يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ » .

وحين لحق سليمان بالرفيق الأعلى كان قد خلَّف الإنسانية فى نزاع حول مبدأين على تضاد . ترفٍ ، وزهدٍ . أو نعيم ، وتصوف . وحينما أحدث تصوف أو بذخ رَدَّ فِعْلٍ فى النفوس أُوثِرَ عمل اليد ، أو الـكد وراء العيش ؛ وكان منه الشعب الليدى ؛ الذى خلف الحثيين على آسيا الصغرى . أما فى أقصى الجنوب

أو فى فلسطين فما زال علماء بنى إسرائيل يحتضنون العلم على تصوف ؛ وما زالوا يؤثرونه لبنيهم ؛ حتى رأيناه ماثلا فى الأدب الصوفى[1] الذى ورثه الإسلام عن هذه المدنيات. وحين نمى عددهم . صاروا ؛ كأمة ، وعرفوا بالسريان ، واستطاعوا أن يحملوا لواء المعرفة مع المسلمين فى ترجمة أو تأليف .

أما فى الشمال الشرقى من دجلة إلى بخارى، وسمرقند . فقدأخذ الأدب ناحية اجتماعية أخرى ؛ تسودها الفكاهة الموروثة عن السوماريين ؛ كما تسودها فكرة أشبه بالشيوعية ، وقد نشأت مع الميديين أصحاب الموائد العامة على قارعة الطريق . وبمصاهرات مع الأكاديين استطاعوا أن يبعدوها عن هزل ومجون ؛ كما استطاعوا أن يصبغوها بناحية جِدِية كانت دعامة لِفَنَّى الموسيقى والغناء .

ولقد نشأت هذه الشعوب على هيئة قبائل . وكانت فى حالتها الاجتماعية على مانعرفه عن العرب فى العصر الجاهلى ، وكان كلما وصل إليهم فوج من العرب وجد منهم روحا طيبة ، وامتزاجا فى المعيشة ؛ لما بينهما من تشابه فيها . أو لما كان بينهما قديما من أواصر فى النسب ؛ إذ يعودون إلى نوح و إسماعيل.

ولقد نمت هذه القبائل على الفروسية ؛ واتخذتها وسيلة لسلب أو نهب ؛ على سبيل المجاملة للجبليين . ولقد كانوا كثيرا ما يندون بسياسة آشور ؛ وكثيرا ما حالوا بينها وبين التقدم إلى سوريا .أو بنى إسرائيل . وكانوا كإخوانهم العرب على شىء عظيم من الاستقلال فى الرأى ؛ مما أدى إلى وجود قومية أو مبدإ قومية فى نفس كل قبيلة ؛ كما كانوا يكرهون الملكيات الكبيرة فى الثروة . أوالسياسة ؛ فإذا رأتها قبيلة أن تغتصب ، وتوزع على الفقراء . كبرث ،

(١) للأدب الصوفى إلمامة يمكن استخلاصها من الموضوعات السابقة .

ونمت ، وكان لها أنصار ، وإذا رأتها أخرى أن تغتصب ؛ لتعيش عليها . مُدَّتْ لها الموائد ، وَأُلْقِيَتْ حولها الأغانى والأشعار ، وَضُرِبَ لها بالدفوف ؛ لتكون فيما بعد المزمار الأول لداود . ولقد نشأ عن هؤلاء وهؤلاء أمم صالحة للحياة . . تفهم كيف تُؤَسَّسُ الممالك . وكيف تُوَزَّعُ الثروة ؛ بحيث لا يُنْسَى فيها فقير ؛ أو يُحْرَمُ منها ضعيف .

وقد ساعدت هذه الحياة المرحة على رقى اللغة ، ونمو الأدب . وما وافى القرن الثامن قبل الميلاد ؛ حتى كان لهذه القبائل شأن فى الحياة .

هذا . . . وحينما أراد الميديون أن يطبقوا مبادئهم بشكل أوسع عجزوا ، وضعفت فى أيديهم الثروة . وأخذوا يندِّدون بالليديين ؛ حتى كانت بينهما حروب انتهت بضعف الميديين ، وتنازلهم عن ملكيتهم لقبيلة ، عرفت بالقبيلة الإنشانية . أى « الإنسانية » حيث تركزت فيها المبادىء الإنسانية بشكل أعم . وما زالت تنمو ؛ حتى كان منها الفرس قبل الميلاد وبعد الميلاد ، وما زالوا يحتفظون بأنسابهم فى الفترة التى أديلت منهم للإغريق ؛ حتى كان منهم الساسانيون(١) بعد الميلاد . وهم فى الواقع ذرية لإسماعيل . تخلفت فى هذه البقاع ؛ لتنتظر الإسلام ، والتدوين مع العباسيين .

هذه ناحية اجتماعية أشاد الفرس عليها ملكيتهم . وقد نمى فى ظلها كثير من المعانى الروحية ؛ حتى كانت قوميتهم أقرب إلى أدب منها إلى دين .

(١) لفظ ساسان هو لفظ إنسان بعد حذف المقطع التوقيتى « أن » من أوله اكتفاء بالأخير والاستعاضة عنه بسين ثانية لفرد ثان من أفراد القبيلة أمكنه أن يعيد إليها مجدها الأول فى فترة . أو وقت ثان . أى « بعد الميلاد » .

أما الميديون فقد هاجروا . أو هاجر البعض بمبادئه إلى أوربا عن طريق بحر قزوين[1] وما زالوا يعيشون مع غيرهم على هذه المبادىء ولوفى فوضى اجتماعية ؛ حتى امتازت أخيرا إلى شيوعية واشتراكية .

وحين تخلف البعض كان قد تخلف ؛ ليرى رأيا ، أو ينتظر نتيجة ؛ إذا تنازل عن بعضٍ من مبادئه ؛ ليستعيض عنه بشيء من عرف الليديين . فنشأت قومية عرفت بالإيدومية . وحينما أوثر أدم مع كد من قيراط أرض على سلب ونهب تحولت التسمية إلى ديموقراطية ، وما زال هذا رمزاً للفلاح إلى اليوم . أو رمزاً للعامة من كل شعب .

هذا . . . ولعل من الميديين أقواما لم يستطيعوا أن يؤمنوا بعيسى ؛ حتى ينزل عليهم مائدة من السماء .

هذا إلى قوميات أخرى يضيق بها الذكر . وحينما كان يشتد نزاع حول مبادىء قومية وأخرى كان الموابيون يستطيعون بقوميتهم أن يوفقوا بين الجميع باسم توبة . أو رجعة إلى الحق . أو قدرة على تحللٍ من فكرة إلى فكرة وانتقال من رأيٍ إلى رأى .

وحينما كان يأخذ النزاع شكلا علميا كانت ترافقه قومية . أو ناحية علمية أو سياسية تأخذ معنى جمهورية أى « جمع آهور » . وتتركز فى فكرة خير وشر

ولقد كانت هذه المبادىء سرعان ما تنتقل إلى الشعب الهيليني ، وسرعان ما كان يعرضها على بساط العقل ، وكثيرا ما كان يحاول تطبيقها على نفسه أو على شعوب مجاورة ؛ حتى نشأت عنها قوميات انتهت بالإغريق ثم الرومان .

(١) التسمية كان منها قز . أى حرير . ووين . أى « أين » .

ولقد كان تسامحٌ دينيٌّ عُرِفَ به الفرس مما ساعدهم على التوسع فى ملكياتهم على حساب قوميات مجاورة لهم ، وكان ذلك كثيرا ما يوغر صدر الإغريق ؛ حتى نشأت بينهما عداوة وحروب انتهت بفوز الإغريق .

وحينما وافى القرن الرابع قبل الميلاد . أو حين أخذت الإنسانية تُجِدُّ فيه كانت هذه المبادىء . أو تلك القوميات قد امتازت إلى عقليات ثلاث . دينية فى مصر . وأدبية فى فارس . وعلمية . أو نظرية فى اليونان . وحينما رجحت كفة الإغريق استطاعوا أن يمزجوا بين هذه العقليات ، مع تفوق فى الأصل الموروث .

ولقد كان تردُّدُ علماء الموابيين بين وطنيين أثناء نزاع بين فرس و إغريق أو فرس ورومان تردُّداً لنواحى المعرفة بين هؤلاء . وهؤلاء ، حتى أمكن للإغريق والرومان أن يأخذوا بنصيب وافر من أدب الفرس ، وحتى أمكن للمصريين أن يمزجوا تقاليدهم الدينية بفلسفة الإغريق

أما ناحية دينية للشرق فى إسرائيلية أو مسيحية فلم يعترف بها علماء الإغريق أو الرومان ؛ إذ كانت تسيطر عليها الأهواء ، وكثيرا ما كانوا يستعيضون عنها بهيام فى أدب ، أو شعر ، أو تمثيل .

ولعل عقلية إغريقية لم تعترف بهذه الأديان . كانت ، وما زالت إرثا عن مصاهرات من الجبليين مع الحثيين ؛ حتى امتازت بها فرق الألمان ، وحتى أرادوا بها الحقيقة الواقعة عند ظهور الإسلام .

هذا وحينما كان يشتد نزاع بين فرس ورومان كانت تضيع قوميات ، وتفنى جماعات . وكلما فنيت قومية أو جماعة قبعت معرفتها فى قرية ، أو مدينة

أو مقاطعة ؛ لتكون إرثا لجيل جديد . وما زالت هذه المعارف تنمو فى شكل قروى ، أو مدنى ، أو إقطاعى ؛ حتى رأيناها أخيرا فى أمثال « بعلبك » و « أنطاكية » و « حوران » و « نصيبين » . وحتى رأيناها مع الإسلام فى « بخارى » و « سمرقند » و « كرمان » أى « أهرمان » و « خراسان » أى « آشور . أو آخور ساسان » .

ولقد ضلت العقلية فى الشرق عند ظهور المسيح . و بعده ، وحارت ! من أى نصيب تأخذ ؟ أو إلى أى جانب تميل ؟ .

إنْ سحراً .. فقد ضلت به العقلية ، وأخلف به الظن ، و إنْ تصوفا ... فقدشقيت به العقول ، وهزلت به الأجسام ، و إن ترفاً ... فقد عجزت عن تحقيقه ميدية . أو ليدية ، وأرادته مانوية على غير نظام ، و إنْ معرفة ... فقد أريد لها لغة مواتية ، تبلغ من نفوس القوم ما كان يبلغه سحر ، أو عرافة ، أو تنجيم . و إن علوماً ... فقدانتقلت إلى ناحية لغوية ؛ لتأخذمعانيها تجزيئا فى حرف ، أوفعل أو اسم ظاهر ، أو ضمير ، أو تنويعاً ، بين قلة وكثرة ، أو بين إفراد وتثنية وجمع ... الخ .

حينئذٍ وجدت فى اللغة مادة لعلمى المعانى والبيان ، وحينئذٍ كثرت فى اللغة أحرف وأسماء يستطاع بها الخروج بالتعبير إلى أكثر من معنًى واحد ، وحينئذ وُجِدَ فى اللغة ألفاظ بديعة تمتزج بالمعنى ، وتصل به إلى التأثير فى العقول أمثال : « لعلّ » و « بلى » و « ليت » ... الخ . وحينئذ أمكن للغة أن تدخلها تعبيرات ، كتشبيهات واستعارات . إذا قرأناها فى المأثور من علم الفلك اعتبرناها خرافات ، ولكنها كانت بداية تشبيهات واستعارات ، وحينئذ استطاعت اللغة أن تستوعب كل ماحصلت عليه الإنسانية من معارف وعلوم .

ولقد كانت هذه الفترة فى الواقع فترة انتقال للعقلية من شعوذة إلى تعلق بيقين ؛ كما كانت فترة اختزال للمعرفة ؛ ليجول بها الأدب فى شعر وخطابة .

هذا . . . وإن القوم ما زالوا يجهلون التأثير الخطابى ؛ حتى يكون للعرب نصيب من السياسة على ضفاف دجلة ، وفى ربوع الشام ، وإنهم ما زالوا يمهدون للغةٍ جديدة ، هى لغة العرب ، ولغة القرآن . وحينما جاء الإسلام لم يكن عسيرا عليه أن يختلط بهذه العقول . كما لم يكن عسيرا عليه أن يمتزج بهذه القوميات .

إن الإسلام ما كان دين أمة ، بل كان شريعة أمم ، وما جاء إلا بعد أن مُهِّدَ له سبيل إلى كل عقلية ، وَوُجِدَ له إشعاع فى كل نفس . وإن حيرةً وقع فيها القوم كانت تؤذن بهذا الدين الحنيف .

ولقد ضلت العقلية عند ظهور الإسلام فى هذا الإرث من العلوم . هذا ... وقوميات قد أصيبت معرفتها بركود قد عادت إلى شبه نهوض ؛ لتأخذ حظها معه ، ولكن بشكل آخر غير ما كانت عليه .

إننا نجد مع الإسلام أقواماً يرددون فكرة آشور على أنه المهدى المنتظر ، ويؤثرون به إماماً من ذرية محمد . وإن هؤلاء كان يحدوهم عبد الله بن سبأ .

وإننا نجد مع الإسلام فكرة خير وشر « زرادشتية » تشغل حيزا كبيرا من عقلية علماء المسلمين ، وينقسمون بها إلى فرق وأحزاب ، ولكنها لا تتدخل فى أساس العقيدة ، بل تكتفى بنصيب اختيارى من أفعال العباد ، أو تتمسك بوجوب فعل الأصلح على الله .

وإننا نجد للموابيين مع الإسلام فكرة رضاء بالقدر ، أو إرجاء له إلى حين .

وإننا نجد مع الإسلام مرانا لحيوان يستطيع مسيلمة ، وغير مسيلمة من « زطّ » و « قرامطة » أن يأخذوا به من عرض الدنيا ما شاءوا ، وأن يؤثروا به على عقليات لم تهتد بعد ... إلى نوع من الحياة .

ولقد استطاع الإسلام بين هذا الخلف العقلى أن يبنى له معرفة ، ويكوّن له علوما . كما استطاع بين هذا الشتات الاجتماعى أن يعيد مجد صالح وهود ، ولكن لبناء فى الجسم ، وتدعيم فى الحضارة ، وتكوين فى العقيدة .

قال تعالى : « يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ . وَكُلُوا ، وَاشْرَبُوا ؛ وَلَا تُسْرِفُوا . إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ » . وفى أخرى يقول سبحانه : « هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا . فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا ، وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ » .

ومع هذا فقد نمت بعض العقليات عند المسلمين على إرث من الماضى ؛ فى تصوف لاينادى به القرآن ، وحين اشتد بهم الضيق السياسى فى عهد الأتراك عاد السحر معهم ، وتحول إلى طب أحجبة ، وتعاويذ من القرآن .

* * *

هذا ... وحينما كان يؤثر زواج بالأم . أو الأخت كان ؛ لتركيز صفات الوراثة فى الذرية عن الأصول [1] . وحين حدد بواحدة ، أو أربع . كان لتستبق ذرية كل نبيّ عددها ، أو تقف عند ما وصلت إليه ؛ ولتحصل فى البقايا الصالحة تعادل فى العدد ؛ لتفاوت الزمن مع كل بعث .

(١) هذا إلى أن انتشار العقم قديما بين النساء ، كان لضعف النطفة عن تحمل جزء من الأفكار الصالحة ؛ التى تساعد على انتشار النسل . أو تسلسل الذرية .

و إننا بعد الإسلام نرى مصاهرات قد تقف عند موت الذرية ؛ قبل أن تبلغ سن المراهقة ، أو تسير مع عقم ، أو تنتهى بالفشل ، وذلك فى الواقع يرجع إلى اختلاف الزوجين فى الأصول . أما إذا كانت فى سلالة نبى واحد ، و بين ذريته ؛ فإنها تتم على خير وفاق .

هذا ما رأيناه مع العباسيين . حين تمت المصاهرات بينهم و بين الفرس على خير وفاق ، وحين آتت تلك المصاهرات ثمرةً فى نشر علم . أو نجاح سياسة ، وعلى العكس من ذلك ما رأيناه منهم مع الأتراك ، أو من الأمويين مع سكان الأندلس ؛ إذ كانت السياسة معهما على اختلاف ، أو فى شقاق .

بسم الله الرحمن الرحيم

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ. قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي. وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا

معنى الروح

لقد وضحنا . . . . كيف تدرجت الإنسانية فى بناء معرفتها ، وتكوين علومها . وكيف استطاعت أن تبنى حضارة يقرها العقل ، ويطمئن إليها التاريخ ؛ كما وضحنا فى ذلك أثر كل رسالة ، وموضعها بين أحداثه .

ولقد كانت تغلب على هذه الرسالات الناحية الفنية . . . من مِرانٍ على الإنشاء والتعمير، ومِرانٍ على تنظيم المدن ، وتكوين الممالك ، وسياسة الشعوب .

ولقد كان الزاد العلمي حتى بعث محمد فى حاجة إلى تمحيص ، ولكن القدر الذى وصلت إليه الإنسانية منه وقت ذاك . كان بحيث يصح أن تتداوله الألسنة ، والأيدى بالقراءة والتدوين ، وبحيث يصح أن يأخذ له تسجيلا على صفحة السماء ، وبحيث يجب على البدو أن يصلوا فيه إلى شيء ؛ ليكون حياة ولغة لعصر جديد .

إن ذلك فى الواقع كان موضع رسالة محمدٍ إذ قال له ربُّه : « إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذِى خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ، الذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ » .

ولقد كان محمد « صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ » كثيرا ما يسؤل عن الروح ؛ ولكن حياة علمية إذ ذاك ما كانت على استعداد لتكوين الروح إلا أن تمحص ، وتحقق ، وتأخذ طريقها إلى الكمال فى قراءة وتدوين .

ولقد خشى المصريون، وعلماء المصريين على مذهبهم الدينى فى عودة

الروح . فكثر سؤالهم عنها ؛ ليطمئنوا إلى ما وصلوا إليه من عبادات ، ولكنه سبحانه كان يرجيء الإجابة إلى يوم القيامة ؛ إذ سيتم تكوينها من علوم يتجلى بها ؛ كآية من آياته ، وكان يرفق بالإجابة قلة العلوم لذلك الحين . قال تعالى : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ . قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ؛ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً » .

إن لله أمراً آخر بعد أمر محمد ، و إن له آيات سيتجلى بها يوم القيامة ؛ لتنال كل نفس معها نصيبها من المعرفة والعلوم ، ولكن مع كؤوس من العذاب ؛ سيتجرعها كل جاهل ومفرط ؛ وكل عالم ؛ و بالقدر الذى خفى عليه من هذه العلوم .

قال تعالى : « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلاَئِكَةُ . أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ . أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ . يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا[1] لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ . أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا . قُلْ : انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ » .

إن عذابا تهدد به هذه الآية لم يكن سوى مدّ صور الإنسان فى صفحة السماء بجزء قليل . أو كثير من الغازات المعدنية التى تنفر منها النفس ، وتشمئز منها الروح ؛ لتعود بعد المحنة إلى جلاء . و إن زاداً علمياً صحيحاً سيناله الإنسان إنما هو تكوين فكرى للروح يجب أن يقابله تكوين معدنى لصورته على الأرض ، وصورته فى صفحة السماء . و إن انتظاراً لتغذية توانى المرء بهذا

(١) الإيمان : هو العلم بكل ما جاء به القرآن من علوم . وآداب . وسياسة . الخ . والعمل بها .

الجزء المعدنى لا يجدى فى مثل هذه الأوقات ؛ إذ سيستعد لصوم يتخلص به من خلاياه المريضة ؛ والتى بنيت على خطأ ؛ ليبنيها من جديد على صحيح من المعرفة والعلوم . .

هذا . . . وتناول هذه العلوم بغير كتابة وقراءة لا يعتد به فى تكوين لروح . وقراءة وكتابة بغير اللغة العربية فى هذا التكوين لا يؤبه له ، ولا ينظر إليه يوم القيامة ، بل لا بد وأن يعود كل إنسان إلى فطرته [1] ؛ لتسجل عليها هذه العلوم . قال تعالى : « يَوْمَ نَطْوِى السَّمَاءَ كَطَىِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ . كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ . وَعْدًا عَلَيْنَا . إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ » .

هذا . . . واقتراب من زوجة سيمنع منه المرء يوم القيامة ؛ حتى يتخلص من أخطائه ، وإن الأمر فى ذلك سيقتصر على مس خارجى ؛ إذ أن هذا الإفراز الغرزى أخطاء يجب ألا تلقى فى الأرحام ، وفضلات يجب أن تلقى إلى الخارج بأى شكل . وقد كنَّى الله عن ذلك بقوله تعالى : « يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ، وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ » .

هذا فى الواقع كناية عن السفور ، وتعميمه يوم القيامة . وكناية عن تعديل أساليب التربية ، وبنائها على الشعور بالجمال فى كل شىء ، والوصول به مع المرأة إلى أبعد غاياته عن طريق المدنية والتحضر . وكناية عن أخذ المرء بالشدة حينما يدعى مرة أخرى لصلاة أو سجود ينال به نصيبه من هذا الجمال فلا يستطيعه .

ومع هذا فكبت للشهوة لا يعرفه يوم القيامة [2] ؛ إذ يؤدى إلى اختقان

---

(١) عود الإنسان إلى الفطرة يكون برفع صوره ، وأوضاعه التى يعيش فيهما من سمائه . وحينئذ لا يشعر إلا بما يقع عليه نظره .

(٢) القيامة لغة من تقويم الخلقة ، وتعديل الصور .

صور المرء ، ومجرفة الوجه ؛ لتوقف طاقته الجنسية . أو الـكهربيـة عن التصريف ؛ فتزيد فى احتراق صوره ، وهذا ما نلاحظه أيضاً على بعض فتياتنا اللاتى يزاولن المعرفة والعلوم . طالبات . أو معلمات .

هذا إلى أن هذا الإفراز الغرزى[١] يخلفه غيره على حالة أنقى ؛ فيساعد على تجديد البشرة ، وتقويم الخلقة ، وينتهى بصور الإنسان إلى نور ينعكس على الوجه ، ويطابق حقيقة منه . هذا مع النظافة ، وتربية النفس على الفضائل كما يأمر به الدين ؛ ليستطيع أن يستبدل بأخطائه صحة فى الجسم ، وصوابا فى الرأى ، واعتدالا فى الخُلُق ، واتزانا فى العقل . أما استهلاك هذا الإفراز على غير نظام فعيلة فى شبيبة ، وطفولة فى ثوب رجولة .

وهذه الصورة التى يكونها المرء لنفسه ، ويعمل على تسجيلها فى صفحة السماء ؛ ليتناولها الملأ الأعلى بالتنقيح . هى روح الإنسان ، وهى على نوع من الحياة : ولـكن الإنسان لايحيا معها حياة صحيحة إلا مع الجسم ؛ لتـكون حياة واقعية . لها قصد ، ولهـا أثر . أما هذا القدر الذى هى عليه من الحياة فهو القدر الذى نشعر به فى الأحلام .

هذا . . . وكلما ارتقى الإنسان فى أخلاقه وعاداته . وكلما أصاب الحقائق الفكرية ؛ كما يقرها العقل ، ويشرعها الدين ، كلما وصلت به روحه إلى حالة تقرب من الرؤيا الصالحة التى عرفت عن الأنبياء .

هذا ما سيكون عليه يوم القيامة ، ولهذا القصد قدر الله لهذا اليوم خمسين ألف سنة .

---

(١) هذا إلى أن هذا الإفراز يكون عند من يصل إلى درجة كبيرة من العقل والتفكير فى حالة رقيقة ؛ لا يلبث أن يتطاير معها بعد دقائق .

قال تعالى : « سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ(١) لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ . مِنَ اللهِ ذِى الْمَعَارِجِ . تَعْرُجُ الْمَلاَئِكَةُ ، وَالرُّوحُ(٢) إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ . فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً : إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ، وَنَرَاهُ قَرِيباً : يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ(٣) . وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ . وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا . يُبَصَّرُونَهُمْ(٤) .. الخ »

هذا ما ستبنى به الروح ، وسيعتمد الإنسان فيه على نفسه إلى أقصى حد وسيكون له وجه قبول من السماء عند ما تتخلى عنه الملائكة ؛ لتداوى الإنسانية نفسها بنفسها . قال تعالى : « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ » .

أما ما يهدم من الروح فسيكون من نصيب الحيوان ، وسيحيا هذا الحيوان حياة صحيحة ؛ كتلك التى يحياها الإنسان ، وسيشاركه فى كثير من أوضاعه ؛ ليستطيع أن يتقبل عنه أخطاءه . قال تعالى : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ . وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ . مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَىْءٍ » .

هذا . . . وكلام من الحيوان أمر لابد منه ؛ ليستطيع أن يخلص مادون

---

(١) الكافرون : المغطى على أرواحهم ؛ لاختلاطها بأخطاء الحياة .

(٢) لايراد بهذه الروح روح القدس ، بل روح كل إنسان عندما تتخلى عنها الملائكة ؛ ليصعدوا هم أيضا بأرواحهم إلى الله بعد هذا الجهاد .

(٣) المهل : ذوب منصهر من النحاس . وهو كناية عما ستكون عليه الأرواح من شدة فى الحرارة .

(٤) يبصرونهم : أى يوجه كل إنسان إلى خطيئته ؛ ليتخلص منه بأى شكل .

في الروح من أخطاء . وهذا أمر سيتحقق مع يوم القيامة ؛ كآية من آياته سبحانه . قال تعالى : « وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ ، تُكَلِّمُهُمْ (١) أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ » .

وسيتنوع الحيوان حسب تفاوت الأرواح . وربما كان الطير من نصيب العلماء ؛ ليستطيع أن يقتنص من أفكارهم ما يشاء ؛ ليزود بها الجهلة ، والمتدرجين في المعرفة . وربما كان لكل إنسان بعد هذا الجهاد طائر ؛ ليرى مقدار مايستطيع أن يرسله له من أفكار . قال تعالى « وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ (٢) وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا ؛ يَلْقَاهُ مَنْشُورًا . اقْرَأْ كِتَابَكَ : كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا » .

وصور الإنسان تلك هى التى يقوم عليها الإحياء ، وتتحقق بها الإماتة ؛ فإذا أريد له نقلة إلى الآخرة نقلت الملائكة هذه الصور بجميع أوضاعها ؛ التى كان عليها فى الدنيا إلى الكواكب . عندئذ تغيب أوضاع الدنيا من فكره ، ويكون الموت . فإذا تجمع من هذه الصور عدد يستحق الإحياء أمطرت الكواكب بمطر خاثر (٣) ؛ ثم سلطت عليه هذه الصور . وحينئذ تستطيع

---

(١) لا يراد لهذا الكلام أن يكون تام النطق ؛ بل سيكون على أى نحو ، وعلى نحو ما كان عليه الإنسان من عجرفة فى صوته ؛ ليحصل به تطابق بين الصور . وربما اضطرت قوى السماء ؛ فتلقى عليه صورا لحيوانه الذى سيتشبه به إن لم يسرع فى التخلص من أخطائه .

(٢) هذا كناية عن ملازمته لسمت الإنسان فقط ؛ ليحيط علماً بأفكاره ، وما يستطيعه من إرسال ؛ كنتيجة لخشيته ، وتوجهه إلى الله .

(٣) أى كثيف كاللبن الرائب .

كل صورة . أو كل روح بما هى عليه من حرارة أن تجفف لها جسما يتقمصه الإنسان من هذه المياه .

وستتعرض الإنسانية لنوع من العقاب على نمط العقاب الطبيعى ؛ ليتخلص الإنسان مما كان يركن إليه من عادات ، وتقاليد لا تتفق مع ليونة ترجى للروح . وسيشارك كل نبى ذريته فى جزء من هذا العذاب للتشجيع . فمن يحيا على أمل فليوطّن نفسه على فقده ؛ حتى لا يموت حسرة عليه . ومن اعتاد سكنى القصور فليعود نفسه سكنى الأكواخ ، وفى جوف الصحارى ؛ لتزكو روحه على شىء من الصبر ، والجلد ، وقوة الاحتمال ؛ كما زكت بذلك أرواح الأنبياء .

هذا ... وستتعدد الإماتة يوم القيامة ؛ لاختبار ما وصلت إليه الروح من تكوين علمى وخلقى . أما مدى هذا الاختبار فيكون ببقاء أجسام الموتى مدة كبيرة من الزمن . دون أن تصاب بتحلل ، أو تعفن ؛ إذ تكون قد وصلت الروح إلى درجة من الحرارة ، بحيث تستطيع أن تبدد ما يحيط بالجسم من رطوبة ؛ وتلك قد نشاهدها فى أجسام الأولياء بعد الموت ؛ ومن على علم وحكمة من عظماء التاريخ .

وهذه الحرارة المعدنية للروح . هى التى ستكون عليها سرعة التئام الجروح ، وسرعة الإبلال من المرض ؛ لتجفيفها ما يحيط بالأعصاب من فضلات دهنية ، أو مخاطية ؛ تقف بالجسم عن نموه الطبيعى .

* * *

وقدرة الإنسان على إرسال ربما نستطيعه . أو يستطيعه المستقبل ؛ على أنه لن يستطاع إلا إذا تخلصت الإنسانية من شوائب الحياة ؛ لتصل الروح إلى

حالة تزكو معها هذه الصور . وليس ببعيد عليها أن تصل إليه ، وقد عاشت عليه ردحا من الزمن فى سحر ، وعرافة ، وتنجيم ... الخ . ولكنه لن يكون بين إنس وجان ؛ بل بين الإنسان وأخيه الإنسان ؛ كنتيجة لوصوله بحضارته إلى الاعتراف بها من جان ، أو شيطان .

هذه الصور ، هي التى يراها الإنسان لصديقه فى الأحلام ، وأثناء النوم . وليس عسيراً عليه أن يكونها لنفسه فى خياله ؛ ليراها أثناء اليقظة ؛ كما يراها فى أحلامه ، وهذا هو المثل الأعلى لتربية قوى الخيال عند الإنسان .

هذا إنما يكون بإجادة الخيال ، والتفكير فى حياة يحياها هذا الصديق فى بقعة ما ... من الأرض ؛ يكون هو أيضا قد شاهدها ، وعاينها ؛ ليوضح لها صوراً فى مخيلته ؛ على أن ذلك لن يكون إلا بعد أن يدرس حياة صديقه العقلية ؛ ليستطيع أن يرسل إليه هذه الصور على ضوء منها ، هذا مع العزلة التامة ، والابتعاد عن صخب الحياة ، وتحت ظلام من الليل ، أو من سقف المنازل ؛ حتى لا تتلاشى هذه الصور فى ضوء النهار .

هذا ما أتنبأ به لآشور ؛ ليستطيع أن يأخذ الإنسانية ، بتوجيه عام ؛ وإذا نجح فيه فهو نجاح للإنسانية فى هذا النوع من الحياة .

ولقد رأيت على عفو مثل هذه الصور . أثناء اليقظة ؛ وأنا مغمض العينين وكان جفناى لها ؛ كشاشة بيضاء . وكان يغلب أن كانت صورا لغيد لم أر لهن مثيلا ؛ ولكننى لم أدر من أين كانت تأتينى هذه الصور .

ولقد ضللت الحياة بعدها حينا ؛ ولكننى لم أدر ... أضللتها عن الجان أم كانت قد استهوتنى الشياطين .

ولقد احتفظت بقواى العقلية كما هى ، ولكن مع طارئ نسيان فما كنت أشعر به من قبل .

و بعد . . . فيأيها الأخ السابق ؛ إذا فارقت الحياة ؛ فثق أنك ستحيا بعد ساعات ودقائق ؛ وثق أننا ، أو ذرية منا ستتصل بسمائك فى يوم من الأيام . فإن كنت على علم ، وحكمة ؛ فجاو بنا بما تستطيع من أصداء الحياة على ضفاف الكواكب .

الحالات الفكرية وأثرها فى الجهاز العصبى

لقد كان مما اعتدته عندغسل الوجه أن أجعل للصابون مسا ؛ والتهابا فى باطن جفنىَّ ؛ وكنت كلما داومت على ذلك أرى لما يحيطنى من أجواء بريقا ولمعانا . وكنت عندما أكرر هذا؛ كنظام تعودته ؛ أرى على غير قصد شررا لا يتجاوز حبة القمح ؛ يخرج من موق عينى .

ولقد حاولت كثيرا ؛ لأرى كنه هذا النور ؛ فكنت أستبدل بالصابون شيئا من عصارة الثوم ؛ ليزداد التهاب الجفنين ؛ ثم أغمض عينى بإصبعين ؛ وأحلق بفكرى إلى السماء ؛ فأجد نقطا منها على جفنى ؛ ولكن فى شكل ناصع ؛ و بين هالات من نور[1] . حينئذ علمت أننا نعيش فى ضوء آخر دونه ضوء النهار ؛ وأن بحاسة البصر عندنا ضعفا ، وقف بها عن رؤية هذا الضوء وأن هذا الضوء الذرى الذى نعيش فيه . ما هو إلا مس بين هذا النور ، وأشعة من الشمس ، أو أشعة من البصر .

هذا النور الذى عجزت أبصارنا عن رؤيته ، هو الإنتاج الكهربى الذى ادخرته الإنسانية لنفسها منذ أجيال من السنين . وهو فى الوقت نفسه الإنتاج الفكرى الذى وصلت إليه ؛ والخلاصة الصالحة التى استحقت أن تشغل حيزا من السماء .

---

(١) هذه النقط تشبه ما تكونه تجمعه الضوء من أشعة الشمس على الورق . ولعل هذا من عمل عدسة العين ؛ كمجمعة لضوء الكون .

هذا الإنتاج الكهربي . ليس من تكوين الطبيعة كما نفهمه على خطأ ؛ بل من تكوين الإنسان ؛ كنتيجة لشقائه ، وجهاده فى الحياة . وهو فى حد ذاته وحدة لا تتجزأ ؛ بخلاف ضوء الشمس . وكلما وصلت الإنسانية إلى إنتاج علمى ؛ أو روحى يمكن أن ترتبط به بأواصر من الرحمة ، والعدالة . كلما ساعد ذلك على تماسك هذا الإنتاج الكهربى . أما ما يخالف الحقائق الفكرية المرجوة للإنسانية ، فإنه يستنفد فى الحروب ، ويأخذ له طريقا إلى الفناء ؛ كنتيجة للتخلص من شرور بدت من أمة أو جماعة ، أو كراحة يشعر الإنسان بها بعد أن يأخذ لنفسه بالثأر ، وهى فى كل ذلك أفكار تتألم منها النفس ، ويوخز بها الضمير ، وتجهد الأعصاب إن لم تأخذ لها هذا الطريق إلى الفناء

قد يتبادر إلى الذهن أن هذا الإنتاج الفكرى ، أو الكهربى يحرق الجسم ؛ كما تحرق قصاصات الورق بالنار . والواقع أنه لا يحرق النفس منه إلا ما تتألم منه . هذا إلى أننا أجسام معزولة بما يحيط بنا ، وبأرواحنا من غازات رطبة كغاز النوشادر . أو تيارات هوائية تساعد على انتعاش الجسم .

ولقد كان دخل الإنسان الأول من هذا الإنتاج الفكرى ، أو الكهربى على غير نظام ، وكان كثيرا ما يعجز عن تلمس أسباب من الرحمة والعدالة ؛ فتثور نفسه ، ويتملكه الغضب ؛ فيأتى بإنتاج فكرى لا تحتمله السماء ؛ فيرمى فى وجهه ؛ ليحترق به فى صيحة ، أو رجفة ، أو صاعقة . قال تعالى : «وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ ؛ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ . . . »

هذا . . . وكلما أدى الإنسان تجاربه فى زراعة . أو صناعة . أو تجارة .

أو تعليم . . . الخ . بحيث تأخـذ صفة نجاح . استطاع أن يمدَّ صوره بها ؛ ليقتطف منها ما يشاء وقت الحاجة ؛ عن طريق التطابق بين الصور . وحينئذٍ يستطيع أن يؤدى تجاربه فى الحياة فى يسر ، ومن غير تعب .

أما إذا تهاون فى تأدية واجبه ؛ كتجارب تتطلبها الحياة ، و يتطلبها المستقبل . فلا يزال يتعثر فيها ؛ حتى تأخذ صفة تعديل على صفحة السماء .

قال تعالى : « وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ — أى خيره — بِإِذْنِ رَبِّهِ . وَالَّذِى خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إلاَّ نَكِدًا » .

والتطابق بين الصور فى نبات . أو إنسان . أو حيوان هو ما يقصده سبحانه ؛ لنجاح هذه التجارب ؛ حتى يستطيع سبحانه أن يتخلى عنها ؛ لترتهن كل نفس بما كسبت . أو اكتسبت ؛ إذا أظهر يوم القيامة عجزا فى بعض الأنفس بعد هذا الجهاد .

وهذا التطابق بعد أن تنتهى الإنسانية ؛ و إلى حد ما . . فى تجاربها إلى نجاح . هو الذى سيسير الحياة فى جميع أوضاعها ، وهو الذى سيستغنى به سبحانه عن توجيه قدرة جديدة إلى خلقه . فيغنى كل مغن . أو ممثل كيفما استطاع له الغناء . أو التمثيل ؛ و بالشكل الذى يتقبله الذوق السليم . و يؤدى كل مدرس واجبه فى يسر ؛ وكيفما أرادت نظم التربية ، والتعليم . ويخرج كل صانع صناعته بالشكل الذى لا تنتهى به إلى بوار . . هذا إلى ما يرجى من نجاح لكل حرفة . أو مهنة .

قال تعالى « : « يَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ — أى الشكل ، والهيكل — فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا » .

أما هذا التطابق فلا أقلّ ولا أكثر ؛ لتوضيحه من غناء الحاكى بأقراصه بعد ملئها بالأغانى والأناشيد . ومن ترديد الحياة فى العقل ؛ وعلى أشرطة الخيالة ؛ ليتمتع بها الجمهور . أو ليتناولها الملأ الأعلى بحكم أو تجريح .

هذه هى الحالات الفكرية ؛ كإنتاج ينعكس على الأعصاب ؛ فيأخذها إلى انتباه ، وشعور بالحياة . أما كيف تتكون معه صور الحياة . أو كيف يؤثر فى الأعصاب تأثيرا طبيا . أو لاسلكيا فسأتناوله بشىء من التوضيح .

* * *

لقد حاولت كثيرا ؛ لأهتدى إلى الضوء الذرى الذى نعيش فيه ، ومقدار اختراقه للأجسام ؛ فكنت أختفى تحت مياه الأنهار ؛ وفيما يقرب من الشــواطئ ؛ وفى نقط يكسوها الظل . أو تتسلط عليها أشعة الشمس . وكنت أرغم نفسى على فتح جفنىّ فى باطن المـاء ؛ فأرى ضوء الشمس ينير القاع ؛ كما ينيره فى نقط تقرب من سطح المـاء . وكنت أرى الظل يمتاز بطبقاته فى المـاء عن طبقات الضوء به .

لم أكتف بهذا . . ؛ بل كنت آخذ أوانى معتمة ؛ فأملؤها بالمـاء ؛ ثم أسلّط إلى داخلها . من فتحات ضيقة شعاعا من ضوء البطاريات الصغيرة ؛ فأراه ينير المـاء ، ويتسرب إلى جميع أجزائه .

حينئذٍ علمت أن هذا الضوء الذرى لا يحول دونه حائل . وحينئذ فهمت قوله تعالى : « أَيْنَمَا تَكُونُوا . يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ . وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ » ؛ كما استطعت أن أفهم قوله تعالى على لسان لقمان : « يا بُنَىَّ إِنَّهَا

إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ؛ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ (١) أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ . إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ » .

ولقد قلت فى نفسى أخيرا ؛ لو انتقلنا بسلاح الكشافات تحت الماء ؛ فربما نستطيع أن نعيش فترة بين أحيائه . أو نستطيع أن نتخذه ضد الغواصات ؛ فنخفف من ويلات الإنسانية فى حروب قادمة .

* * *

هذا إلى أن الماء قد خفى علينا شأنه ؛ كمجمع للصور . أو مجمع للضوء مع ما يحمله من هذه الصور .

إننا فى الواقع إذا نظرنا إلى جزء مظلل من الماء ؛ وفى مستوى سطحى . نرى لنا صورا على سطحه . وهذه الصور قد نراها أيضا مع أجسام ذات لمعان . أو فى زجاج مظلل . وكلما زدنا فى تظليل هذه الأجسام استطعنا أن نرى هذه الصور بشكل أوضح .

هذا هو ما قام عليه اختراع المرايا ، وتلك هى أقصى ما وصلت إليه هذه الأجسام ؛ لتجميع الصور من هذا الضوء ؛ لترى بوضوح . وعلى هذا الأساس خلقت حاسة البصر ؛ لنرى ، ونبصر بها الأشياء .

* * *

إننا إذاً نستطيع أن نسائل أنفسنا . . . كيف نرى ، ونبصر الأشياء ؟ . . فنجد منها الجواب . . . . .

---

(١) هذا إلى أن الصخور لها مع هذا الضوء صور كهربية يستطاع بها من الملأ الأعلى رؤية دقائقها ؛ كما يستطاع بكشف الأشعة رؤية كسور العظام .

إن هذا هو وظيفة هذا الضوء ؛ إذ يتخالل مائية العين بما يحمله من صور يتخيلها الإنسان ؛ كما يتخلل طبقات الماء . ولـكنه يتفاعل مع تكوينها المعدنى ؛ لتستمد منه هذه الصور شيئا تصل به إلى وضوح .

هذا الضوء . أو هذه الصور إذا تجمع للعين منها جزء قامت العدسة بتجميعه خلف إنسانها ؛ فيلقى تظليلا منه ؛ يصل به إلى الحالة التى تراه عليها فى المرايا ؛ لاسوداده . أو لقربه من الإسوداد ، وتحول مائية العين خلفه إلى ما يشبه سطوح المرايا .

فإذا أمكن للإنسان أن يمدّ هذه الصور بشيء من تفكيره ازداد تكوينها الـكهربى ، واستعدت الأعصاب أن تحملها إلى فراغ من المخ ، و بين خلاياه ؛ لتلقى تظليلا أكثر ، وتفاعلا من أخيلته ، تصل به إلى صحة بعد خطإ . أو وضوح بعد إبهام ، وغموض .

هذا التظليل الذى يخلف إنسان العين يصل إلى أعصاب المخ على شكل مخروطى ، وعند نهايته تتضاءل هذه الصور ؛ كنتيجة . أو عمل لعدسة العين . وحينئذ تستطيع هذه الصور أن تنفذ مع هذا الضوء من منابت الشعر ، ومن أنابيبه ؛ لتتصل بصورة المرء الأساسية ؛ التى تسامته فى السماء .

هذه الصور الضئيلة هى التى يقوم عليها الانتباه ، والشعور بالحياة ، و إبصار المرئيات ؛ كنتيجة لترددها فى جو يشبه المرايا يعيش فيه الإنسان . أو تحيا فيه الروح .

هذا . . . وكلما كان الشعر فاحما . أمكن أن يزيد هذه الصور وضوحا ؛ ولهذا القصد كسيت الرءوس به . و إن اختلفت ألوانه .

* * *

ولقد فكرت كثيرا فى اللاسلكى ؛ كفن نستطيع أن نصل به إلى التصوير فى يسر ، ومن غير تكاليف . فما وجدت له خيراً من نظرية تجميع الصور بالمرايا . وإذا كنا بها نرى ، ونبصر الأشياء فإننا لا نعجز عن أن نصل بها مع هذا الفن إلى التصوير .

إن ذلك لن يتجاوز تزويد كل جهاز استقبال بلمبة إضاءة عادية ، كرية الشكل ؛ تطلى من الخارج بطلاء أسود ؛ لتتحول من الداخل إلى مرايا . ثم صندوق بلورى . يحول من الداخل أيضا إلى مرايا ، ويزود أيضا من الداخل بلمبات إضاءة عادية ؛ من غير تلوين ، ويُحْتَفَظُ بأحد جوانبه من غير تلوين أيضا ، ويظلل بستارة مما تتخذ منه الأشرطة ؛ ليكون ؛ كشاشة بيضاء ؛ تنعكس عليها الصور ، وربما تحتاج هذه الشاشة إلى تظليل آخر ، وفى فراغ آخر .

هذا . . وإذا اتصلت هذه اللمبات بتيار كهربى واحد مع تيار الجهاز قامت اللمبة الكرية السوداء مقام إنسان العين ، وقام الصندوق البلورى مقام تجويف بين خلايا المخ ، وعظام الرأس ؛ لإحداث تظليل تتكون فيه الصور وقام هذا التيار الكهربى مقام تفاعل بين إنسان العين وحبته . أو بينه وبين الأعصاب .

هذا هو الأساس الذى قام عليه فن التصوير بآلاته العادية ، وهو عين ما توصل إليه الطب فى كشف الأشعة لكسور العظام . أما قدرة الإنسان على رؤية هذه الصور قبل أن تنتشر فى مائية العين فلن يكون إلا من السطح الخارجى للجفن ؛ وكنتيجة إرسال من صديق لصديق .

أما أجهزة الإرسال فتزود أيضا بمثل هذا الصندوق البلورى السابق .

شرحه . ولكن يستبدل بشاشته عدسة كبيرة ؛ و يتصل مع لمبته السوداء بمجمعة الصوت ؛ و يستغل ؛ كآلة دائمة لتصوير الحفلات ، ونقل الأفلام لأجهزة الاستقبال .

هذا ما أراه . وربما يؤدى هذا الغرض تغطية جدر حجرة الإذاعة بالمرايا ؛ وتزويدها بهذه اللمبات العادية ؛ فى نفس المرايا ، وجمع أسلاكها إلى صندوق تظليل كبير ؛ لتتصل بلمبته السوداء ؛ فى أى وضع مع مجمعة الصوت .

هذا . . وربما كان من الواجب تفريغ هذه الصناديق أيضا من الهواء .

وربما كان بناء حجر الإذاعة على نظام القباب مما يساعد على تجميع الصوت ، وعدم انتشاره ؛ وليكون له صدى فى الأذن ؛ لتناسبه مع تكور فى العين . أو فى الرأس . وهذا أمر قد شهدته ، ولاحظته فى إذاعة صلاة الجُمَع من جامع « محمد على الكبير » بالقلعة ، وقد امتاز بها دون غيره من الجوامع . وربما كان الارتفاع بحجر الإذاعة إلى هذا العلو مما يساعد أيضا على تحقيق هذا الغرض .

* * *

وحرارة الأعصاب يستمدها الإنسان من روحه ، ومن تفكير يتطابق به مع ما زوده بها من أخيلة .

هذه الحرارة لا يُرَى لها ضوء فى أعصاب الجسم و إنما يُرَى ذلك فى أعصاب الروح ؛ لذلك كانت الأعصاب أعقد من كفة حابل ؛ لتستطيع أن تدخر من الحرارة ما يكفى لغذاء الروح .

هذا أمر نلمسه فى الآلات الكهربية . فالأسلاك ما دامت مستقيمة . فلا يظهر للتيارات الكهربية بها ضوء مهما زادت طاقتها . و إنما يكون ذلك إذا

كانت حلزونية . أو أفرِغَ لها الهواء ؛ كما نرى ذلك فى لمبات الإضاءة ، والمدافىء ، والسخانات ؛ ولذلك أيضا كانت أعصاب المخ فى اعوجاج . وفى المخيخ على التواء .

ولحرارة الأعصاب تأثير طِبِّى ؛ كنتيجة أخيرة لعمليات الهضم . ذلك أنها تساعد على فناء ما يتخلف بالدم من فضلات مخاطية . أو دهنية . أو قريبة منهما ؛ حتى لا تتشحم بها الأعصاب ، وتؤدى بالجسم إلى السمنة ؛ التى يفقد معها حيويته .

وفناء هذه المواد يحتاج إلى إجادة تفكير . أو إجهاد فى العمل ؛ لتخرج مع العرق إلى ظاهر الجسم . أو لتحمل الأعصاب تصفية منها إلى النخاع الشوكى ؛ لتفرز فى الاختلاط الجنسى : وحينئذ تكون قد حملت معها جزءاً من عصارة المخ ؛ يساعد على تحقيق النسل .

قال تعالى : « فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ ، وَالتَّرَائِبِ(١) . إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ . يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ . فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ »

هذه المواد يقول الطب فيها إنها كرات دموية بيضاء . والواقع غير ذلك ؛ إذ الدم لا يعرف إلا بلونه القرمزى . وكلما زادت فيه نسبة هذه المواد كان الإنسان على فقر دم . أو على استعداد لمرض تزداد به حرارة الجسم ؛ لتأخذ هذه المواد سيرها الطبيعى ؛ ولهذا يعلل الطب فناءها من الجسم بعد المرض ؛ وإن كان التعليل على خطإ فى التقدير ؛ إذ يقول إنها هى التى تلتهم جراثيم الأمراض وتفنى معها ؛ كنتيجة لهذا الصراع .

---

(١) الترائب : عظام الصدر .

ومما يساعد على فناء هذه المواد تناول المشروبات الساخنة على أنواعها المختلفة قبل تناول الطعام بما لا يقل عن ساعة . أما فى الأحوال العادية . فيكتفى بتناول المشروبات الباردة ، والفواكه ، والحلوى بهذا النظام .

وقدرة الحلوى ، والفواكه ، ومشروباتها ، ومشروبات غيرها على أداء هذه الوظيفة بهذا الترتيب فى تناول الطعام يرجع إلى ما بها من مواد كحولية ؛ تساعد على فناء ما يتخلف بالأمعاء من فضلات بعد كل وجبة . هذا إلى أن ذلك يحقق للجسم ، والأمعاء قدرة على الاستفادة من كل وجبة جديدة . هذا مع تناول كل وجبة على جوع ، والامتناع بتاتا عن تناول أى شىء بين كل وجبة ، ووجبة من فضلات الطعام ؛ كالترمس ونحوه . والإقلال من تناول الشاى إذ يؤدى إلى احتراق صور الإنسان . وعدم تناوله بعد الأكل . هذا وتناول الحلوى بعد الطعام مما يضر بهذا النظام .

هذا نظام لو اتبع مع نسائنا لوصل بهن إلى جمال يذرى بجمال يعتمد على استعمال المساحيق . أما سمر الوجوه فأرى لهن وجبة عشاء فى بعض الأحيان من أرز فقط . على بياضه ، بعد تشبعه بالمسلى على النار .

هذا مع الاستحمام بالماء المغلى فى كل ذلك ؛ وخاصة الرأس ، والاكتفاء للوجه بالماء البارد ، والصابون ؛ ولأكثر من مرة فى اليوم .

هذه تجارب قد لمستها بنفسى ، وستؤدى إلى نتيجة ؛ ولكنها يجب أن تصحب بحالات تربيبية فى تقويم الخلق ، وتكوين الشخصية ؛ لنصون بها هذا الجمال عن الابتذال .

هذا . . . وقد يزول تجعيد . أو خشونة بالشعر بغسل الرأس بماء يغلى ؛

ولو فيه مشقة على النفس ؛ ثم تسريحه ، وتذثيره بسرعة بعد الغسل ، وعدم تعريضه للهواء لمدة نصف يوم .

والاستحمام بالماء المغلى ؛ وخاصة الرأس قد شهدت أثره فى القضاء على فضلات تحملها أعصاب الأمعاء[1] . أو خلايا الجسم فتضر به . ولعل هذا ما يقصده سبحانه بقوله . « يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ . يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ ، وَالْجُلُودُ . وَلَهُمْ مَقَامِعُ[2] مِنْ حَدِيدٍ » .

* * *

وخلايا المخ حينما تستنفد على شكل عصارات مع التفكير تأخذ طريقها الطبيعى إلى الفناء ؛ بحيث لا يستطاع تكوينها مرة ثانية للمخ . وهذا ما جعل الأطباء يقولون : « إن خلايا المخ لا تعوض » .

وفناء هذه الخلايا لا يضر بالإنسان ، ولا يؤثر فى توازنه العقلى ؛ إذا كان ذلك عن حكمة ، واتزان فى التفكير .

هذه العصارة تتساقط فى بويضات التناسل قطرة قطرة . ولا تستنفد من هذه البويضات مع الإفراز الغرزى إلا قطرة قطرة . وهى فى كل ذلك ؛ كقطب سالب ؛ لما تحمله الأعصاب من هذه الإفرازات المتخلفة عن عملية الهضم .

وهذا الإفراز . إن لم يكن عن تفكير . ينتهى بالمرء إلى انحلال ،

---

(١) خروج هذه الفضلات من الجلد أمره واضح . أما من الأمعاء فتخرج مع التدفئة الشديدة على شكل مخاط « بلغم » يكون فى الأصل رخوا ؛ ثم يتجمد تدريجيا ؛ مع المواظبة على هذا النوع من الاستحمام ، وقد ينتهى بهذا أمره من الأنف . أو الصدر .

(٢) لعل هذه المقامع كناية عن مشارط الطبيب ، وآلاته الحديثة .

وضعف فى اختلاطه الجنسى ؛ كما أن الإجهاد فيه بوسائل غير مشروعة . من تناول الخمور ، وتعاطى المخدرات يؤدى إلى تفتت خلايا المخ على غير نظام . ربما يذهب معه العقل .

والإجهاد العادى فى هذا الإفراز — أى من غير تفكير — لا يدع لهذه الخلايا طريقا إلى الفناء ؛ ويقتصر أمره على ما تحمله الأعصاب فقط ؛ فيشعر الإنسان دائما بنوع من الغباوة . أو شىء من الكسل ؛ لبقاء المخ بها على ثقله النوعى .

والأعصاب عند ما تنقطع الصلة بينها ، و بين خلايا المخ ؛ كنتيجة لهذا الإجهاد ، تأخذ معها الكثير من فتات عظام الصدر . فتنعكس بياضا فى الشعر .

وفناء خلايا المخ بنظام علمى لا يسرع بالمرء إلى الشيب ، ولا يأخذه عند الشيخوخة إلى تخريف . وهذا أمر يجب أن تتسع له وسائل التربية فى المراحل الأخيرة من التعليم الثانوي ، وفى الجامعات . وخير للمرء أن لا يكون لمخه خلايا إلا ما يبطن الأعصاب ؛ ليتسع صندوق تظليل ؛ تتكون فيه صور المرئيات .

بسم اللہ الرحمن الرحیم

هٰذَا خَلْقُ اللّٰهِ فَاَرُوْنِیْ مَاذَا خَلَقَ الَّذِیْنَ مِنْ دُوْنِهٖ

التفريغ الهوائى

كلنا لا يجهل أثر الهواء فى انتعاش الجسم ، وتصحيح وضع الروح ، وكلنا يجب أن يفهم أننا مراكز حرارة ، أبلغ من الشمس أثرا فى تبخير لجة العالم ، وتحويلها إلى مياه غازية ؛ تتسامى معها الروح .

ولقد درسنا فى علم الجغرافيا ما لحرارة الشمس من أثر فى خلخلة الهواء فى بعض مناطق الأرض ، وعلمنا أن ذلك يحيل طبقات أخرى منه إلى مناطق ضغط ؛ تمتاز بالعواصف ، والأعاصير .

هذا الضغط الجوى . أو هذا الهواء المتساقط فى شدة ؛ ليخلف المتصاعد منه هو الذى تحفظ به الأشياء على سطح الأرض ، وهو الذى يحفظ به الإنسان توازنه على هذا السطح ؛ فى أى موضع من مواضعه . فى شمال الكرة الأرضية . . أو جنوبها .

هذا . . إلى أن الإنسان بزفيره ، وشهيقه يحدث لنفسه مثل هذه المناطق ؛ فيساعد على حفظ جسمه ، وتوازن روحه .

هذا الهواء المتساقط ، أو هذه الضغوط للأجواء هى ما يمكن أن نتخذها علة ؛ لتساقط الأجسام على الأرض . هذا إلى أن هذه الأجسام ذات ثقل نوعى ؛ لا تستطيع به أن تحتفظ لنفسها بمركز فى الهواء ؛ فتضطر إلى الهبوط .

ولقد قال علماء : إن هذا التوازن يرجع إلى شىء سموه جاذبية ، وفرضوا لها فروضا لا يؤيدها العقل ؛ ولا تعتمد إلا على التخمين . وحينما شاهدوا

تفاحة تقع من أعلى شجرتها على الأرض اتخذوا ذلك علة . وقالوا : إنها سقطت بالجاذبية . ولم أدر لم َ لَمْ يقولوا : إنها سقطت بالثقل النوعى للأجسام .

ولقد قالوا : إن الأجسام الكبيرة تجذب الأصغر . فالأصغر . وأن الشمس هى أساس نظرية الجذب ؛ ولكن من يصدق هذا . . . . إن من يصدقه يجب أن يقر بعقل فى هذه الأجسام ؛ كمؤثر ، ومحدث لهذه الجاذبية ، وإلا . . . فأين مناطق التصديق ؛ التى يعتمد عليها هؤلاء العلماء .

ولقد قالوا : إن الأرض مغناطيس كبير ، ولكننا نمشى عليها ؛ فلا نجد لهذه المغطسة أى أثر ؛ على أن هذه المغطسة ما عرفت إلا فى بعض حجارة منها ؛ وعلى ندرة .

هذا إلى أن المغطسة التى ندرسها فى علوم الطبيعة لا نصدقها إلا إذا التصق أحد الجسمين بالآخر . وهذا لا تقره المشاهدة لوضع الكواكب مع الشمس ؛ بل إنها تنفصل عنها بطبقات ، وطبقات من الهواء ، والأجواء ؛ على كل نوع . وقد تصل البرودة فى بعضها إلى الدرجة التى يجمد بها الدم فى الشرايين .

* * *

إن للعالم وضعا آخر غير ما نفهمه عليه . فهذه الكواكب التى يقدر لها العلماء حركة حول الشمس كواكب ثابتة . وما قدر لها من حركة محض تخمين . أو افتراء على العلم . وإنها ما تعددت أقمارها إلا لأنها لا تعرف هذه الحركة الإلتفافية ؛ التى عليها الأرض ، وقمر الأرض .

هذا الوضع قد بينه لنا القرآن فى كثير من آياته . قال تعالى : « وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ . وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ . وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ » .

هذا البناء بالأيدى إما أن نفهمه تكوينا لصور الحياة فى صفحة السماء . و إما أن نفهمه مادة ، ووضع لبنة على لبنة ؛ ولو عن طريق المجاز ؛ ليكون العالم كرة مفرغة من الفولاذ . تتوسطها هذه الكواكب مع الشمس ؛ على أن كلا الوضعين صحيح فى المادة ، والغرض الفكرى ؛ حتى تظهر الحياة واضحة للملأ الأعلى ، ويكون لها رنين . ويكون لها صدى ، وضوضاء فى الأجواء العليا من السماء .

والكواكب مع النجوم الثواقب فى هذا الوضع لا يمكن أن نفهمه ؛ على أنه بناء ؛ كما يفسره بعض العلماء ؛ إذ هذا البناء له فهم آخر أسمى من هذا الفهم ، وله وضع آخر يتسامى مع العقل ؛ على أنه سبحانه يقول فى شأنه : «وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ» وسعة فى البناء لا تتفق وضآلة كل كوكب مع سمائه ؛ هذا إلى أن لفظ سماء ذكر مفردا فى هذه الآية .

قال تعالى فى مفاضلة بين خلق إنسان ، وخلق سماوات : « وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمٰوَاتِ ، وَالْأَرْضِ . وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

لقد حاولت أن أجعل خلق السماوات فى وضع النجوم والكواكب بهذا الوضع مثلا أعلى فما وجدته ينطبق مع صور أرقى فى التفكير تخيلتها لهذا الكون ؛ على أن وضع هذه الأجرام السماوية بهذا الشكل ليس فيه قدرة أو اقتدار . إنه يقوم فقط على التفاوت فى الكثافة بين طبقات الجو ؛ كما يقوم على التفاوت بين هذه الأجرام فى الثقل النوعى .

هذه الأجرام قد أخذت هذا الوضع حسب هذا الثقل النوعى لها . و إن ذلك أشبه برمينا لجملة أجسام ؛ فى أحجام ، وأوزان مختلفة فى قاع محيط . فمنها ما يهبط إلى القاع ، ومنها ما يقف فى منتصف الطريق . أو يطفو على

وجه الماء . أو فى نقط قريبة من السطح . فإذا فرض أن لا قاع هناك ؛ فعلى أى حالة يكون أثقل هذه الأجسام . إنه لابد وأن يقف به الهبوط فى نقطة ما . . . من الكون . ما دام قد تنوع فى طبقاته بين ماء ، وغاز . أو بين ماء ، ولجج منه .

هذا إلى أن هذا الهواء قد أثبتت التجارب الكيمائية خفته فى الطبقات العليا من الجو . وربما يكون من غاز الهليوم فقط فى الطبقات التى وقفت دونها قدرة الإنسان .

* * *

هذا . . . وبناء بغير عمد قد فهمه البناءون ، وعرفوه فى نظام القباب . وسماء بغير عمد لا يصدق لها تفسير إلا إذا كانت على هذا النوع من البناء . أو على الأقل ؛ حتى لا تتلاشى الموجات الكهربية بما تحمله من أصداء الحياة[1] .

قال تعالى : « خَلَقَ السَّمٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ . تَرَوْنَهَا » . أما الرؤية فى ذلك فخطاب لمن فوقنا . أو لنا . ومن رؤية العقل ، ورؤيا الخيال .

على هذا يمكن أن نفهم قوله سبحانه . « أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰوَاتِ ، وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً ؛ فَفَتَقْنَاهُمَا . وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ . أَفَلَا يُؤْمِنُونَ . وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ . وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً ؛ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ . وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظًا . وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ » .

---

(١) لقد وقعت لى تجربة عرفت بها مدى هذا الصدى . ذلك أنى كنت أفترش أرض حجرة مغلقة النوافذ ، على حصير فقط ، ثم ألصق إحدى أذنى بالوسادة ؛ بحيث لا يتسرب إلى داخلها شىء من ضوضاء الحياة ؛ فكنت أسمع من يتحادثون فى مثل هذه الحجرة من طابق يعلوه طابق .

وضغط الجو هو الذى تسقط به الأجسام المفرغة المكفأة على الماء إلى القاع . فلو فرضنا أن لاهنالك ضغط جوى ، وأكفأنا سفينة على الماء ؛ فإنها يستمر عالقا بها سطح الماء . دون أن تهوى إلى القاع . وفى الإمكان أن تحمل وهى فى هذا الوضع أجساما ذات ثقل محدود .

و بقاء العالم حافظا لتوازنه ؛ ككرة عظيمة من الفولاذ ؛ انفصل عنها ؛ ومن قطبها الجنوبى ما يقرب من السدس ؛ ليسمح بإفراغ الهواء ، وتجديده فى داخلها ... يقوم على هذا الفرض النظرى . هذا إلى أن تخلخل الهواء بداخلها ؛ نتيجة ما تحتويه من مراكز متعددة للحرارة . مما تتسابق به تيارات الهواء إلى الداخل ؛ فتساعد على رفعها فى طبقات الجو ، وتعمل على حفظ توازنها .

***

وتخلخل الهواء بالحرارة ؛ ليتصاعد ؛ وليخلفه غيره هو ماتتحقق به دورة الأرض حول نفسها ، وحول الشمس .

هذا الهواء المتخلخل فى المنطقة الاستوائية . حينما يتجه إلى الغرب مع ميل إلى شمال أو جنوب يأخذ وجهة النازل من ترام سريع إلى الخلف ؛ ليحتفظ بتوازنه على الأرض .

والأرض حينما تتجه فى دورتها إلى الشرق. وحينما يتساقط الهواء بسرعة ؛ ليخلف المتخلخل[1] منه يأخذ هذا الهواء وجهة أخرى فى منطقتى الأرض المعتدلتين ؛ فيتجه إلى الشرق مع ميل إلى شمال . أو جنوب .

هذا الاتجاه الذى يأخذه هذا الهواء المتساقط . لا يمكن أن نعلل له بدورة الأرض إلى هـــذا الاتجاه ؛ إذ الهواء لا يأخذ وجهة الأجسام المتحركة فى نقط

(١) الهواء المتخلخل لا يساعد على دورة الأرض ؛ إذ هو هواء متصاعد ، ولا يتصادم مع الأرض .

قريبة من السطح ؛ بل يرتد إلى الخلف ؛ كما نشاهد ذلك خلف العربات إذا سارت بسرعة .

هذا الهواء المتساقط فى حد ذاته علة ومؤثر ، ومحدث لحركة الأرض حول نفسها ، وحول الشمس ، وهوالذى يأخذ الأرض إلى هذا الاتجاه من منطقتيها المعتدلتين . هذا إلى أنه عند تساقطه يتصادم مع الأرض ؛ فيساعد على تحقيق هذه الدورة .

هــذا . . . وإذا راجعنا جبال الأرض ، ومرتفعاتها على الخرائط نجدها يغلب عليها الاتجاه من الجنوب إلى الشمال، كما يغلب عليها أن تــكتنف الشواطئ ؛ وخاصةالغربى منها ؛ فتلقى من تجاويف المحيطات تيارات أقوى ، وأشد .

هذه التيارات حينما تتصادم مع الجبال يتحقق لها قوة دفع تساعد الأرض أيضا فى دورتها حول نفسها ، وحول الشمس

وحينما تتقابل رياح المنطقتين المعتدلتين برياح المنطقتين القطبيتين تتقابل معها على تضاد ؛ فتصير للأرض فى حركتها تلك ؛ كتروس تدار بها الآلات بما تحدثه من عواصف ، وأعاصير . ربما تقتلع الأشجار فى بعض الأحيان .

هذه العواصف عند ما تزداد مساحتها من الأرض فى نصفها الشمالى شتاء هى التى تدفع الأرض إلى الجنوب ؛ لتتعامد الشمس على مدار السرطان وعندما تزداد مساحتها فى الجنوب شــتاء . تدفع الأرض إلى الشمال ؛ لتعود الشمس إلى تعامدها على مدار الجدى . وهكذا دواليك .

هذا مايمكن أن يقره العقل ؛ لحدوث صيف فى أحد نصفى الــكرة الأرضية ، أو العكس . أما القول بميل محور الأرض بقدر ما . ليتخذ علة

لهذه الأحداث ، فتخمين لا تعتمده تجربة . أو مشاهدة ؛ حتى نقره نظرية من نظريات العلوم .

أما دورة الأرض حول الشمس فدورة ثانوية لحركتها حول نفسها ؛ إذ لا يكون بعد الحركة ، والدفع إلى انتقال من نقطة إلى نقطة ، وأما احتذاؤها لفلكها فى هذه الدورة ؛ فنتيجة لإحاطتها بقوى دفع من الهواء من كل جهة ؛ يجعلها لا تشذّ عن هذا المدار .

هذه القوى حينما تدفع الأرض من ناحية الشمس ؛ لتخرج عن مدارها تجد فى الوقت نفسه ، وفى جانبها الآخر . أى فى الليل — قوى دفع أشد ؛ كنتيجة تبريد يعم هـذا الجانب ؛ فتردها إلى المدار إن خرجت عنه . وهكذا دواليك .

***

هذا ... وللأرض حركة تفريغ هوائية أخرى حول نفسها . ترميها على بعد ؛ بعيداً عن السطح . ذلك أنها بما يكتنفها من مرتفعات ، وما يكتنف هـذه المرتفعات من أغوار ، تحدد لها شكلا ، لا يفترق عن المراوح الكهربية فى شىء ؛ فى الشكل . أو الغرض .

هذه الحركة الهوائية ، هى التى تدير القمر حول نفسه ؛ وتحدد له دورته فى مداره ؛ على نحو ما سبق بيانه فى دورة الأرض ، وفى الإمكان رؤية هذه الحركة الهوائية بالعين المجردة على سطوح الأجرام السماوية فى وقت مناسب من الليل ؛ لما تحمله من غبار الأرض .

هذا إلى أن انتقال الأرض فى مدارها مما يساعد على أن ترمى بحركتها

الهوائية الإلتفافية تلك خلف القمر ؛ فتجعله لا يفلت منها إلى الـكواكب .
أما من ناحية الشمس فإنه يعتمد فى توازنه على التفريغ السطحى له لقربه منها .

ولقد قال بعض علماء الفلك عنـدما شاهدوا تلألؤا على سطوح هذه الأجرام . إن ذلك نتيجة دورة هذه الأجرام حول نفسها . أو حول بعضها . والواقع لا يقر ذلك ؛ إذ لم تـكن عصافير . أو فى حجم العصافير ؛ حتى نصدق لها هذه الحركة .

أما هذا التلألؤ . فهو تدفق هذا الهواء حينما يعترض سطوح هذه الأجرام ورؤية من العين .

توقيت علميّ

ومعارف علم الفلك للتوقيت ما زالت ضئيلة . وبها جمود . وما زالت تحتاج إلى دليل . أو برهان من العقل ؛ إذ تقوم على التخمين لا غير ، وعلى المشاهدة لوقتى الغروب ، والشروق لمدة حسبت أساسا لهذا التوقيت .

هذا التوقيت على هذا الأساس التخميني نجده عند تداخل الليل فى النهار أو العكس يضيف دقيقة . أو دقيقتين إلى الغروب أو ينقصهما من الشروق . ثم يسكت لمدة ؛ وكأن الشمس قد توقفت عن الشروق أو الغروب لهذا القدر . أو تعثرت فى طريقها ؛ حتى يضاف هذا القدر دقيقة واحدة لفترة . . . ويضاف فى أخرى دقيقتين .

وتداخل الليل والنهار خارج المدارين هو الذى شقى به علم الفلك ؛ ولم يهتد فيه إلى حساب زمنى ؛ يرتضيه العقل ، ويطمئن إليه العلم . أما فيما بين المدارين فقد استراح منه هذا العلم ؛ لضآلة القدر الذى يتفاوت به ليل عن نهار طوال أيام السنة .

وحركة الشمس الظاهرية حول الأرض من شرق إلى غرب قد فهمناها ، وأقمنا لها توقيتا « ٣٦٠° ÷ ٢٤ = ١٥° فى الساعة . بمعدل أربع دقائق لكل درجة . أو دقيقة واحدة لكل ربع درجة » : أما حركتها إلى الشمال . أو العكس فقد جهلناها ، وجهلنا أثرها ؛ كنظام علمي . أو توقيتى يتعدد بهشروق الشمس ، وغروبها فى نقط ، وأوضاع مختلفة . خارج المدارين -

هـذه النقلة الثانية للشمس تقطعها فى ستة أشهر فيما بين المدارين من الشمال إلى الجنوب أو العكس « ٤٥° تقريبا ÷ ١٨٠ يوما تقريبا . أى بمعدل ربع درجة لليوم الواحد » .

فإذا فرضنا الشمس متعامدة على مدار الجدى . ثم انتقلت إلى الشمال فى نقطة بهذا القدر من المسافة . أى ربع درجة بعد يوم على خط زوال ما . . فإنها ترتفع على هذا الخط ، وفى هذه النقطة فى سمت السماء بمقدار هذا الربع . وهذا يستدعى بقاءها فى الجو لمدة ما ؛ حتى تقطع هذا القدر من المسافة على سطح الأرض .

هذه المدة من الزمن عند تكررها يوما بعد يوم . وعند ازدياد هـذه المسافة يوما بعد يوم تتعدد أوضاع الشروق والغروب فى كل نقطة على هذا الخط ؛ كما يتفاوت الليل عن النهار يوما بعد يوم بهذا القدر من الزمن ؛ لتقطع الشمس فيه هذه المسافات يوما بعد يوم .

هذه المسافة . أى الربع درجة . قد تكون مساحة أرضية فى نقط قريبة من المدارين . ولكنها عندما تتلاشى مع انحاء الأرض ؛ وفى كل نقطة تعلو الأخرى تحسب نقط ارتفاع للشمس فى سمت السماء بهذا القدر . أما هذا . القدر من الزمن ؛ الذي تقطع فيه هذه المسافة على الأرض أو مقدرة فى سمت السماء فقد يكون دقيقة فى النقط القريبة من المدارين . أما فيما يبعد عنهما ؛ فيتراوح بين دقيقتين حسب تفاوت بعد كل نقطة عن أحد المدارين

وربع الدرجة هذا حينما ينكشف للشمس من سطح الأرض . أو من أفق السماء إلى الشمال . أو العكس ينكشف لها أيضا إلى شرق . أو غرب ؛

لتقطعه فى دقيقة أو دقيقتين . . . إذ أنها تقطع المسافة من مدار الجدى إلى الشمال . أو العكس فى حركة مركبة من جنوب إلى شمال . أو العكس . ومن جنوب شرقى إلى شمال غربى . أو العكس . هذا مع حركتها الأصلية من شرق إلى غرب . أي أن خط سيرها على الأرض يأخذ شكلا حلزونيا من الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى . أو العكس .

أما هذه الدقيقة التى قدرت لهذه المسافة فى نقط قريبة من أحد المدارين فهى التى سبق تقديرها لكل ربع درجة تقطعها الشمس من الشرق إلى الغرب .

والشمس عندما تتعامد على مدار الجدى فى ٢١ يناير على خط زوال ما . ثم تأخذ فى الانتقال إلى الشمال تكون بعد أربعة أيام قد ظهرت على كل نقطة تتلاقى فيها خطوط العرض الشمالية . مع خط الزوال هذا بمقدار درجة . وهكذا دواليك ؛ حتى تنتهى الستة أشهر .

فإذا أردنا أن نقوم زمنا لمدة ستة أشهر لنقطة تقع مثلا على خط عرض ٣٠° شمالا فإننا يجب أن نضم إليها خطوط العرض الجنوبية أى ٢٢٫٥° تقريبا ليضرب المجموع فى أرباع كل درجة أى « ٣٠ + ٢٢٫٥ × ٤ = ٥٢٫٥ × ٤ = ٢١٠ من الدقائق . أى ثلاث ساعات . ونصف ساعة » .

هذا القدر من الزمن .هو الذى يتفاوت به ليل عن نهار على مدار السنة فى هذه النقطة . فإذا تعامدت الشمس على مدار الجدى كانت زيادة ليل عن نهار فى هذا اليوم ، أى ٢١ يناير ، فى هذه النقطة . هى هذا القدر من الزمن . أي ثلاث ساعات ونصف ساعة .

فإذا وصل التعامد لمدار السرطان . كان العكس ، وكانت الزيادة للنهار على الليل بهذا القدر فى ٢١ يونية .

هذا القدر من الزمن إذا قسمناه على ستة أشهر يكون نصيب اليوم الواحد دقيقة ، وسدس دقيقة ، وهـذا هو القدر الذى يتداخل به ليل فى نهار أو العكس لمملـكة . تقع على هذا الخط أى « خط عرض ٣٠ درجة شمالا » .

وإذا أردنا أن نعين تقويما لمملـكة تقع على خط عرض ٤٥ درجة شمالا يكون كالآتى :

٢٢٫٥ + ٤٥ × ٤ = ٦٧٫٥ × ٤ = ٢٧٠ دقيقة ÷ ١٨٠ يوما = ١٫٥ دقيقة ونصف دقيقة . وهو القدر الذى يتداخل به ليل فى نهار ، أوالعكس لهذه المملـكة .

وإليك نموذجا لهذين التقويمين : —

١ — توقيت صيفى لمملـكة تقـع على خط عرض ٣٠ درجة شمالا . أو جنوبا : —

		ق	س
عددساعات الليل	= (٢٤ — ٣ ١/٢) ÷ ٢ = ٢٠ ١/٢ ÷ ٢ =	١٥	: ١٠
عددساعات النهار	= ١٠ ١/٤ + ٣ ١/٢ = ١٣ ٣/٤ =	٤٥	: ١٣
وقت الشروق	= ١٠ ١/٤ ÷ ٢ = ٥ ١/٨ =	٧ ١/٢	: ٥
وقت الغروب	= ١٢ — ٥ ١/٨ = ٦ ٧/٨ =	٥٢ ١/٢	: ٦

الشهر	الأيام	الشروق ق : س	فرق الزمن	الغروب ق : س
٢٢	الخميس	٥ : ٧ ١/٢	+ ١ ١/٦ ق	٦ : ٥٢ ١/٢
يونيه	الجمعة	٥ : ٨ ٢/٣	» » »	» » »
٢٤	السبت	٥ : ٩ ٥/٦	» » »	» » »
٢٥	الأحد	٥ : ١١	» » »	» » »
٢٦	الإثنين	» » »	— ١ ١/٦ ق	٦ : ٥١ ١/٣
٢٧	الثلاثاء	» » »	» » »	٦ : ٥٠ ١/٦
٢٨	الأربعاء	» » »	» » »	٦ : ٤٩
٢٩	الخميس	٥ : ١٢ ١/٦	+ ١ ١/٦ ق	» » »
٣٠	الجمعة	٥ : ١٣ ١/٣	» » »	» » »
١	السبت	٥ : ١٤ ١/٢	» » »	» » »
٢	الأحد	٥ : ١٥ ٢/٣	» » »	» » »
٣	الإثنين	٥ : ١٦ ٥/٦	» » »	» » »
٤	الثلاثاء	٥ : ١٨	» » »	» » »
٥	الأربعاء	» » »	— ١ ١/٦ ق	٦ : ٤٧ ٥/٦
٦	الخميس	» » »	» » »	٦ : ٤٦ ٢/٣
٧	الجمعة	» » »	» » »	٦ : ٤٥ ١/٢
٨	السبت	» » »	» » »	٦ : ٤٤ ١/٣
٩	الأحد	» » »	» » »	٦ : ٤٣ ١/٦
١٠	الإثنين	» » »	» » »	٦ : ٤٢

ملاحظات :

(١) العدد (١٢) الذى طرح منه العدد (٥ ١/٨) هو مدة نصف يوم من وقت الزوال إلى منتصف الليل .

(٢) إذا أردنا أن نأتى بساعات النهار نضم عدد ساعاته بعد الزوال إلى خارج طرح بقية ساعات الليـــل من عدد الساعات عند الزوال . أى (٦ ٧/٨ + (١٢ — ٥ ١/٨) = ٦ ٧/٨ + ٦ ٧/٨ = ١٣ ٣/٤ = ١٣ س ، ٤٥ ق .

(٣) عندما يرجع الليل على النهار بما أخذه منه نضيف فرق الزمن (١ ١/٢ ق) إلى وقت الشروق لمدة ما . أو ننقصه من وقت الغروب لهذه المدة ؛ لنحتفظ بساعة الزوال عند الرقم (١٢) .

وعندما يرجع النهار على الليل بما أخذه منه شتاء يكون العكس .

---

٣ — توقيت شتوى لمملكة تقع على خط عرض ٣٠ درجة شمالا أو جنوبا : —

		س : ق
عدد ساعات النهار	= (٢٤ — ٣ ١/٢) ÷ ٢ = ٢٠ ١/٢ ÷ ٢	= ١٠ : ١٥
عدد ساعات الليـــل	= ١٠ ١/٤ + ٣ ١/٢ = ١٣ ٣/٤	= ١٣ : ٤٥
وقت الغـــروب	= ١٠ ١/٤ ÷ ٢ = ٥ ١/٨	= ٥ : ٧ ١/٢
وقت الشـــروق	= ١٢ — ٥ ١/٨ = ٦ ٧/٨	= ٦ : ٥٢ ١/٢

الشهر	الأيام	الشروق ق : س	فرق الزمن	الغروب ق : س
٢١	الجمعة	٦ : ٥٢ ١/٢	+ ١ ١/٦ ق	٥ : ٧ ١/٢
٢٢	السبت	» » »	» » »	٥ : ٨ ٢/٣
٢٣	الأحد	» » »	» » »	٥ : ٩ ٥/٦
٢٤	الإثنين	» » »	» » »	٥ : ١١
٢٥	الثلاثاء	٦ : ٥١ ١/٣	— ١ ١/٦ ق	» » »
٢٦	الأربعاء	٦ : ٥٠ ١/٦	» » »	» » »
٢٧	الخميس	٦ : ٤٩	» » »	» » »
٢٨	الجمعة	» » »	+ ١ ١/٦ ق	٥ : ١٢ ١/٦
٢٩	السبت	» » »	» » »	٥ : ١٣ ١/٣
٣٠	الأحد	» » »	» » »	٥ : ١٤ ١/٢
٣١	الإثنين	» » »	» » »	٥ : ١٥ ٢/٣
١	الثلاثاء	» » »	» » »	٥ : ١٦ ٥/٦
٢	الأربعاء	» » »	» » »	٥ : ١٨
٣	الخميس	٦ : ٤٧ ٥/٦	— ١ ١/٦ ق	» » »
٤	الجمعة	٦ : ٤٦ ٢/٣	» » »	» » »
٥	السبت	٦ : ٤٥ ١/٢	» » »	» » »
٦	الأحد	٦ : ٤٤ ١/٣	» » »	» » »
٧	الإثنين	٦ : ٤٣ ١/٦	» » »	» » »
٨	الثلاثاء	٦ : ٤٢	» » »	» » »

ملاحظات : —

(١) العدد (١٢) الذى طرح منه العدد (٥ ١/٨) هو مدة نصف يوم من منتصف الليل إلى وقت الزوال (١٢) .

(٢) يستحسن عند الشروع فى عمل تقويم على هذا الأساس أن يضاف، أو ينتقص فرق الزمن يوميا .

---

٣ — توقيت صيفى لمملكة تقع على خط عرض ٤٥ درجة شمالا .. أو جنوبا : —

		س	ق
عدد ساعات الليل	= (٢٤ — ٤ ١/٢) ÷ ٢ = ١٩ ١/٢ ÷ ٢ =	٩ :	٤٥
عدد ساعات النهار	= ٩ ٣/٤ + ٤ ١/٢ = ١٤ ١/٤ =	١٤ :	١٥
وقت الشروق	= ٩ ٣/٤ ÷ ٢ = ٤ ٧/٨ =	٤ :	٥٢ ١/٢
وقت الغروب	= ١٢ — ٤ ٧/٨ = ٧ ١/٨ =	٧ :	٧ ١/٢

الشهر	الأيام	الشروق ق : س	فرق الزمن	الغروب ق : س
٢٣	الخميس	٤ : ٥٢½	+١½ ق	٧ : ٧½
يونية	الجمعة	٤ : ٥٤	» » »	» » »
٢٤	السبت	» » »	−١½ ق	٧ : ٦
٢٥	الأحد	» » »	» » »	٧ : ٤½
٢٦	الإثنين	» » »	» » »	٧ : ٣
٢٧	الثلاثاء	٤ : ٥٥½	+١½ ق	» » »
٢٨	الأربعاء	٤ : ٥٧	» » »	» » »
٢٩	الخميس	٤ : ٥٨½	» » »	» » »
٣٠	الجمعة	٥ : —	» » »	» » »
١	السبت	» » »	−١½ ق	٧ : ١½
٢	الأحد	» » »	» » »	٧ : —
٣	الإثنين	» » »	» » »	٦ : ٥٨½
٤	الثلاثاء	» » »	» » »	٦ : ٥٧
٥	الأربعاء	٥ : ١½	+١½ ق	» » »
٦	الخميس	٥ : ٣	» » »	» » »
٧	الجمعة	٥ : ٤½	» » »	» » »
٨	السبت	٥ : ٦	» » »	» » »
٩	الأحد	» » »	−١½ ق	٦ : ٥٥½
١٠	الإثنين	» » »	» » »	٦ : ٥٤

٤ — توقيت شتوى لمملكة تقع على خط عرض ٤٥ درجة شمالا .
أو جنوبا : —

		ق		س
عدد ساعات النهار	= (٢٤ — ٤ ½) ÷ ٢ = ١٩ ½ ÷ ٢ =	٤٥	:	٩
عدد ساعات الليل	= ٩ ¾ + ٤ ½ = ١٤ ¼ =	١٥	:	١٤
وقت الغروب	= ٩ ¾ ÷ ٢ = ٤ ⅞ =	٥٢ ½	:	٤
وقت الشروق	= ١٢ — ٤ ⅞ = ٧ ⅛ =	٧ ½	:	٧

التاريخ	الأيام	الشروق ق : س	فرق الزمن	الغروب ق : س
٢١	الجمعة	٧ : ٧½	+١½ ق	٤ : ٥٢½
يناير	السبت	» » »	» » »	٤ : ٥٤
٢٣	الأحد	٧ : ٦	—١½ ق	» » »
٢٤	الإثنين	٧ : ٤½	» » »	» » »
٢٥	الثلاثاء	٧ : ٣	» » »	» » »
٢٦	الأربعاء	» » »	+١½ ق	٤ : ٥٥½
٢٧	الخميس	» » »	» » »	٤ : ٥٧
٢٨	الجمعة	» » »	» » »	٤ : ٥٨½
٢٩	السبت	» » »	» » »	٥ : —
٣٠	الأحد	٧ : ١½	—١½ ق	» » »
٣١	الإثنين	٧ : —	» » »	» » »
١	الثلاثاء	٦ : ٥٨½	» » »	» » »
٢	الأربعاء	٦ : ٥٧	» » »	» » »
٣	الخميس	» » »	+١½ ق	٥ : ١½
٤	الجمعة	» » »	» » »	٥ : ٣
٥	السبت	» » »	» » »	٥ : ٤½
٦	الأحد	» » »	» » »	٥ : ٦
٧	الإثنين	٦ : ٥٥½	—١½ ق	» » »
٨	الثلاثاء	٦ : ٥٤	» » »	» » »

ملاحظات : —

١ — هـذا النظام التوقيتي لا يمكن تطبيقه بعد خطي عرض ٦٠ درجة شمالا ، وجنوبا ؛ وفى بعض جهات ترتفع . أو تنخفض عن المستوى العام الذى يجب أن تأخذه الأرض ؛ ككرة تامة التكور .

٢ — كل ارتفاع . أو انخفاض فى هذا المستوى ؛ ولو بعشرات من الأمتار يؤثر فى غروب الشمس أو شروقها بعشرات من الدقائق .

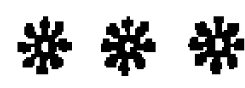
٣ — كل انبعاج عند خط الاستواء معناه انخفاض خط الزوال بعد خطي عرض ٦٠ درجة شمالا ، وجنوبا عن هـذا المستوى بقدر يسرع بالشمس إلى الغروب .

٤ — يمكن تحديد مستوى سطح الأرض ؛ ككرة تامة التكور بعمل تقويم لكل نقطة من نقطها بهـذه النظرية العلمية فى التوقيت ، وما يتفاوت منه مع التقويم الواقعى . هو نتيجة ارتفاع أو انخفاض فى خطوط العرض لهذه النقط ، فإذا قدرنا سرعة غروب الشمس فى ارتفاع ما . . من الأمتار أمكننا أن نحدد هذا المستوى السطحى ؛ الذى يجب أن تأخذه الأرض .



وبعد . . فهل نستطيع أن نفهم أن حياتنا اليومية . حياة تمثيلية للملأ الأعلى ؛ فنعمل على إجادتها ؛ ونطهر لها صفحة الأرض ؛ حتى يتناولها بقبول ، وارتياح ؛ كنتيجة لجهاد الإنسانية طوال ما مر من آلاف القرون .

كن ممثلا ما استطعت أيها الأخ . فى أى وضع من أوضاع حياتك ؛ فإننا لا نستطيع أن نحيا حياة صحيحة إلا بالتمثيل .



هل تستطيع أيها الأخ السياسى أن تتنازل عن شىء من واجبك إذا تعثر فى يدك ؛ لتتناول معه واجبا آخر ؛ فتقدم للأمة أى غذاء تنهض به .

لقد غنت كل وزارة ، ورقصت لخزان أسوان . وأين خزان أسوان بعد عشرين عاما أو تزيد ؟ . . . .

ليس جلاء الإنجليز غرضا أسمى فى السياسة ؛ حتى تقال من أجله كل وزارة . إنما الغرض الأسمى أن تخلق من نفوس شبابنا عدة للمستقبل ؛ وتجعل منه سلاحا يكون لك من خلفك .

هل تعلم أيها الأخ السياسى أن دانقا يشترى به صوت من أصوات الأمة ستتدنس به نفس لا تستطيع أن تناصرك على طول الطريق .

ليس الغرض الأسمى فى السياسة أيها الأخ أن تشترى الأعراض بالمال ؛ ليناصرك من الأمة شباب لم يعرف بعد معنى سياسة ، وغرض أسمى لسياسة .

إنما الغرض الأسمى أن نعلمه ، ونهذبه ، ونعوده جمع المـال من طرقه المشروعة ليعلم . . . كيف . ومتى يدافع عن حقوقه المسلوبة .

ألم تعلم أيها الأخ أن سعياً وراء السعادة من مال يجمع تحت ظلال من الدين تسعة أعشار الدين . إذا علمت هذا . فاعلم أن وجبة طعام يتناولها المرء من طريق غير مشروع تبني جزءا من خلاياه على خطإ تسؤل عنه يوم القيامة .

لقد كان الأولى بنا أن نقيم المصانع ، وندعم التجارة على أساس شركات تأوى فيها العاطل . ونهيئ بها السعادة لـكل فرد ؛ ليستطيع أن يكون لجسمه من سعيه خلايا لا تتعثر بها روحه فى صفحة السماء .

لقد كنا نوَدُّ أن تنال حياتنا الاقتصادية من السياسة شيئا من الاهتمام مثل ما ناله منها الاهتمام بالإنجليز ، وجلاء الإنجليز . وكنا نوَدُّ أن تجازف يد من السياسة ؛ فتستبدل بأحيائنا الفقيرة ، وقرانا المنكودة قرى ، وأحياء جميلة ؛ ليشعر ساكنوها بشيء من السعادة ؛ كصنيع ننتصر به لصفحة السماء أو ننتصر به فى جلاء الإنجليز .

تعال معى أيها الأخ هنيهة إلى هذه الأحياء . . . . لترى ما بها من بؤس الحياة ؛ فتعلم أننا ما زلنا عالة على السياسة ، وما زلنا نضع لها المحراث أمام الثور ؛ كما يقول المثل الفرنسى .

إن تجارتنا لا تساعد على تكوين رءوس أموال ما دامت تعتمد على مجهود فردى . فهل نستطيع أن نحفظها من عبث الورثة . أو ضعفهم ؛ إذا ضاع هذا المجهود ؟ . . . .

إننا لا نستطيع ذلك إلا إذا جازفت يد من السياسة ؛ فألغت هذه الحوانيت ؛ لتقيم تجارتنا ، وأعمالنا المالية فى معارض ، وشركات تزدان بها هذه الأحياء . أو تزدان بها صفحة السماء ، ولعلنا بذلك نهيىء للعامل أو التاجر جزءا من السعادة ، والاستقرار فى حياته الاقتصادية . يغنيه عن التلاعب بالأسعار .

ليست علاوة الغلاء علاجا ناجعا لحياتنا الاقتصادية ؛ بل هى تخدير أعصاب له ردٌّ فعل سيىء بالأمة . فهل نستطيع أن نستبدل بها مصنعا . أو شركة ؛ فنضم حسنة لوزارة مشلولة من وزارة الأمة .

لقد أثبتت وزارة المعارف رجولة حينما تدخلت فى شئون التعليم بكافة أنواعه . فهل لوزارة تجارة . . أو صناعة أن تتدخل فى حياتنا الاقتصادية ؛ لتقيمها على أساس .

ما زال الفلاح . أيها الأخ . يطلب الجنة من طريق غير مشروع . فهل نستطيع أن نحقق له شيئا من السعادة ؛ كتجربة للآخرة .

وبعد . . . . فلعلنا نفهم بعد هذا أن رسالة محمدٍ ، رسالة تعديل ، وتقويم لكل وضع من أوضاع الحياة ؛ فنعمل على تحقيقه بما نستطيع .

الفهرس

تدارك الأخطاء

الصفحة	السطر	الخطأ	التصحيح
٧	١٤	و إن الحياة	إن الحياة
١٦	١١	لا أدعى	لأدعى
١٦	١٠ هـ	الأناث	الإناث
٤٣	١٨	ذلك النمط وهو	ذلك النمط هو
٤٩	١٧	أن يحلى	أن يخلِّيَ
٥١	٣ هـ	الأخوة	الإخوة
٥٢	١ هـ	الأخبار	الإخبار
٥٦	٨	تتخالف	تتحالف
٥٨	٣ هـ	نحبهم	تحبهم
٧١	٢ هـ	بهيج	يهيج
٩٦	٤	تسمو	تسموا



شارع فاروق — تليفون ٥٠٩٣٨

